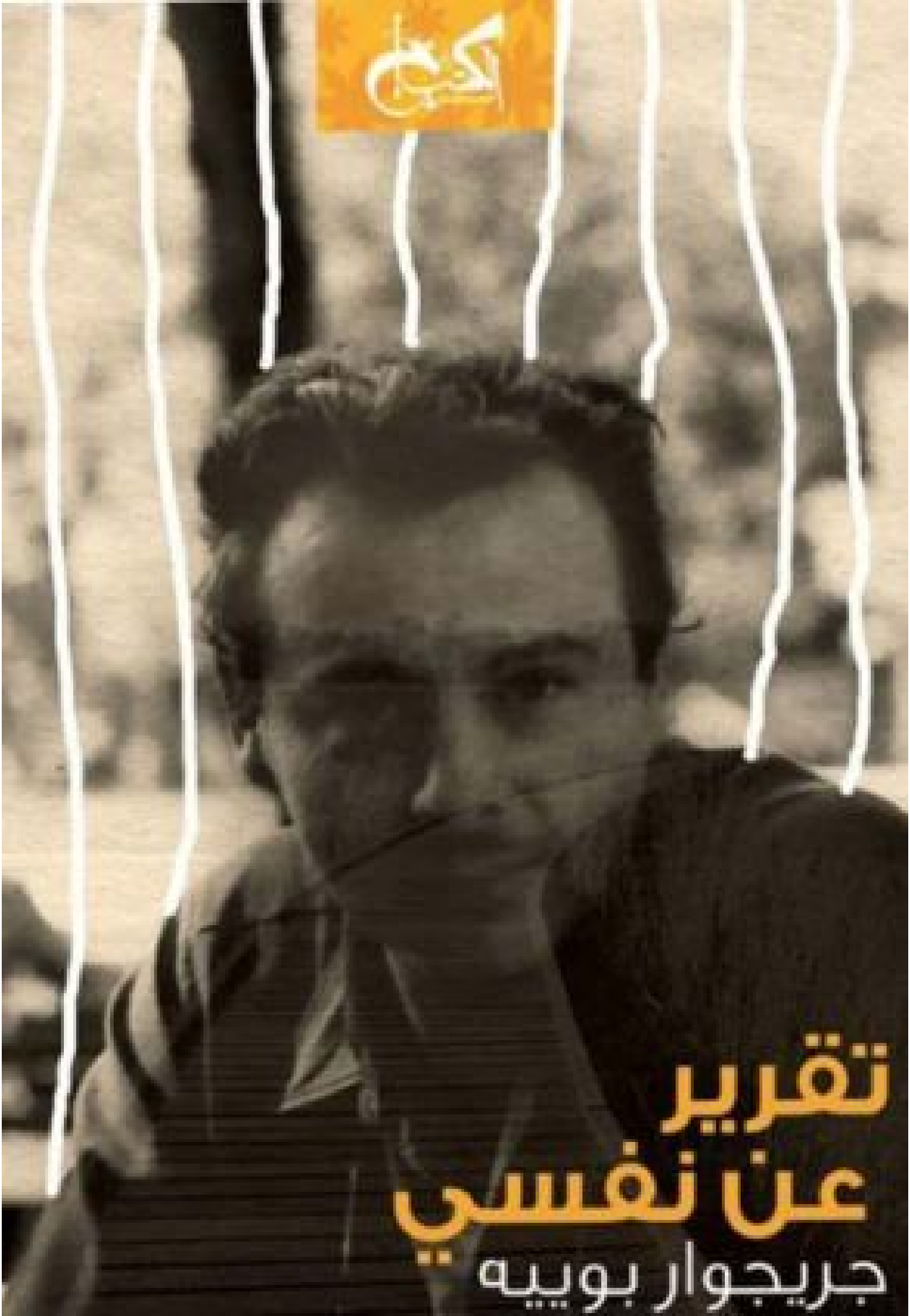

تقرير عن نفسي

جريجوار بوييه

جريجوار بوييه

تقرير عن نفسي

سيرة

الكتب خان للنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة©

«وقع أحد مؤلفات ديدرو في يد فريدريك الثاني. وعلى الفور وجد الإمبراطور أقواله: إلى الشباب... فأغلق الكتاب وقد فهم جيدًا أنه غير مؤجه إليه».

البرنس دي

ليني

ذات ظهيرة في يوم أحد، تظهر أمي في غرفتنا، حيث نلعب أنا وأخي، كلّ منا في ركنه: "يا أطفالي هل أحبكما؟" صوتها قوي، ومنخاراها رائعان. يرد شقيقي دون تردد. وأتردد أنا في تجاوز أعوامي السبعة. لدي وعي بما جرى، لكني أتشكك فيما تلا. وانتهيت بأن همست: "ربما تحبيننا كثيرًا نوعًا ما". تنظر لي أمي بفزع. تبقى لوهلة ذاهلةً، تتوجه نحو النافذة وتفتحها بعنف، وتحاول إلقاء نفسها من الطابق الخامس. تُنبه الضجةُ أبي، فيلحق بها على حافة الشرفة، بعد أن تكون قد مزرت إحدى أرجلها في الفراغ. تصرخ أمي وتتشاجر. وتدوي صرخاتها في الفناء. يجذبها أبي بحزم، ويحملها كجوال إلى داخل الشقة. في أثناء العراك، يصطدم رأس أمي بالحائط، ويُحدث رنينًا. ولفترة طويلة تبقت بقعة دم صغيرة على الجدار شاهدةً على ذلك المشهد. في يوم سأرسم حولها بالحبر الأسود دوائر، وأستخدمها كهدف للتصويب بأسهم اللعب الصغيرة. وعندما أرمي في رقم الألف، أتخيل أني أستعيد لوهلة ملكة الكلام دون خوف.

كانت أمي في السادسة عشرة عندما قابلت أبي، فيما كان هو في الثامنة عشرة. كان ذلك في عام ١٩٥٦ في حفل مُرتجل أُقيم في رواق "بوا كولومب"، حيث كانت عائلة أبي قد استقرت بعد حرب ١٩٣٩. كان أبي يُحيي الحفل بالعزف على الدرامز، في إطار فرقة صغيرة للجاز، مكوّنة من زملائه طلبة الحقوق. وكانت أمي تساعد بغسل الصحون، بعدها بعام، كانا متزوجين، وأنجبا شقيقي، الذي أسمياه أوليفييه، دون سبب معين أعرفه.

بالكاد كان لأبي الوقت أن يرى ولده: فقد استدعاه الجيش لتأدية الخدمة الإلزامية. ولم تكن تلك اللحظة المناسبة للاستدعاء. فبدلًا من الثمانية عشر شهرًا العادية، أُجبرت الحرب -التي لم تكن قد تسمّت بعد بحرب الجزائر- أبي على ارتداء الزيّ العسكري لثلاث سنوات. وقد استقر بمعسكر في تيزي أوزو، عاصمة إقليم القبائل، حيث لم يكن، وفقًا له، يحدث شيء عظيم.

تكدّرت أمي لفراقها السريع لزوجها. واتّخذت قرارها سريعًا: تركت رضيعها لعائلة زوجها، وغادرت لتلحق بالرجل الذي أحبته في الجزائر. بالنسبة لفتاة في السابعة عشرة، لم يكن هذا النوع من الجسارة معهودًا في ذلك الزمن.

وهناك تحابّا. وبالأحرى ثلاث مرات بدلًا من واحدة، حيث سقط تحت

سحر أمي طبيب من مستشفى تيزي أوزو، وسريعا ما انضم للهوهما، وكان حملها بي ثمرة أحد لقاءاتهم الثلاثية.

"أنت ابن الحب"، كانت أمي تردد علي طوال طفولتي، دون أن أعرف ماذا يعني هذا، أو إن كان بالأحرى مقلقًا. وعلى الملأ كانت تحب أن تذكر ببشرتي الداكنة وحقيقة أن ملامحي لا تنتمي لآل بوييه. وعندما كشفت لي بعدها بفترة، وبناءً على سؤالي عن حقيقة مولدي، استخلصتُ مما قالت إنها قرأته في مجلة أنه إذا قذف رجلان في مهبل امرأة، فإن حيواناتهما المنوية بدلًا من التنافس، تندمج، لتخصب البويضة، ويولد من ذلك جنين مشترك.

وحكت لي كذلك أن أبي كان ينتصب جيدًا، وأنه كان مثلي جنسيًا، وفيما بعد، ادعت أنها قالت ذلك لتمزح معي.

أمي كان لديها من تأخذ عنه: كانت بالكاد في الثانية عشرة، عندما قام شقيقها الذي يكبرها بسنتين من الطاولة زاعقًا في الأب، الذي كان يؤنبه على هفوة: "أنت لست أبانا الحقيقي!" في الواقع فإنه كان عمهما، الذي احتل سرًا سرير زوجة أخيه، مكان شقيقه، الذي اختفى في بدايات الحرب العالمية الثانية. ولم يكن لأمي، التي ولدت في نهايات عام ١٩٣٩، أبدًا الوقت لتعرف من كان سببًا في وجودها. لا بد أنها قد تذكرته بشكل غامض، عندما قررت أن تلحق في الجزائر برجل كان هو أيضًا قد ذهب إلى الحرب، أيضًا بعد ميلاد ابنه مباشرة. وبنفس الطريقة التي استبدل بها أخ أخاه في شخصية أبيها، أصبحت هي أنا للمرة الثانية بين أحضان رجلين.

من شقيق لشقيقه، عاشت جدتي دائمًا، مع رجل يُدعى "بيرار"، ولم تضطر لتغيير الاسم لتبدو في زيجة مضبوطة في أعين العالم. وفي المجمل، لم يخرج الأمر من العائلة، وإداريًا فقد تم تبسيط الموضوع. في هذه الأثناء كان يجب مسح كل أثر للمختفي، وهو ما يفترض نوعًا من التركيز، لأن الأمر يتعلّق بالصمت عن شقيق وزوج وأب في نفس الوقت. وفي وسط هذه المؤامرة نشأ الأطفال.

وخلال سنوات، لم يشك أي شخص في الحقيقة، باستثناء الابن الأكبرالذي لم تمحى من ذهنه بعض الذكريات المتداخلة. بالنسبة لأمي، كان اكتشاف أن حياتها قامت على كذبة بمثابة "صدمة" لها، كما ما زالت تتذكر. تقول هذا، وتنظر في عيني بقوة.

أما جدي، الرجل البشوش، فقد عشق كلبةً صغيرةً مولّدة، كانت تتبعه في كل مكان كظله. وكان قد أسماها "ساتليت"، تيمنًا بمركبات سويوز الفضائية السوفيتية، كما أكّد، إذا تكلمنا من ناحية تناسلية، فقد اختار جيدًا، لعشرين مرة في اليوم، كان يُصرح بالحقيقة التي احتفظ بها لنفسه، دون أن يشك فيها أحد، ولا هو نفسه. فعندما كان يصرخ في ساتليت كان يناديها سالتيه (قذارة).

وفي الفرنسية القديمة تعني كلمه بيرار "الأب السيء".

بوييه بدورها تعني "غابة صغيرة من أشجار البتولا". أنا أعرف إذن من أي نوع من الخشب قد صنعت، وهو ما لا يتأتى لأناس كثيرين.

عند مولدي، تم الاتفاق على تسميتي نيكولا، ولكن لأن برجيت باردو كانت قد وضعت طفلًا أسمته نيكولا، فقد غيرت أمي اسمي إلى جريجوار. وهكذا أصبحت "من يسهر في السهرات" وهو ما تعنيه جريجوار المنحدرة من الكلمة الإغريقية إجريجوريان. لو كنت قد تسفيت نيكولا كنت سأكون "انتصار الشعب"، وهو ما لا يستتبع نفس المصير. ولأقنع نفسي فقد أصبحت صديقًا لفترة لواحد يُدعى نيكولا، وهو لم يعرف أبدًا ما الذي يعنيه اسمه لصداقتنا. لم يكن يحمل الشعب أبدًا في قلبه، وبدرجة أقل انتصاره.

وبخلاف التقليد، لم يمنحني أبواي أي اسم آخر، فلحقًا بجريجوار. لم يرتبط بي أي من الأسلاف سواء كان صالحًا أم طالحًا. لم أضطر لتخليد ذكرى أي من موتانا. إلي فقط سيرجع فضل تسمية ظلّي يومًا ما.

عندما خرجت من بطن أمي، يبدو أنني كنت أضحك. النسوة الحكيمات تشاجرن معًا تقريبًا ليعتنين بي: لم يرين أبدًا رضيعًا فرحًا هكذا بقدومه إلى الحياة.

بعدها بثلاثة أيام، كان وزني قد صار أقل من كيلوجرام، وحالتي أصبحت فرعية. ولم تستطع أمي إرضاعي، لإصابتها بخراج في الثدي، ورفضتْ بشكل قاطع الحليب الصناعي من ماركة "جيجوز". كذلك لم ينجح معي حليب البقرة أو الأتان أيضًا. واعتقدوا أني لن أكمل يومًا في الحياة، حتى تعطفتْ ورضعتْ حليب عنزة، عثروا عليها بالمصادفة تقريبًا، بالقرب من مستشفى الولادة. لهذا الحيوان ذي الشخصية القذرة أدين بحياتي.

كانت درجة الحرارة في تيزي أوزو تبلغ أربعين درجة في الظل يوم مولدي. "لم أعان أبدًا مثل هذا اليوم" تحكي أمي متطوّعةً. وتُحب أن تتذكر أنني كنت ضخمًا جدًا في آخر أيام حملها، حتى إنها كانت تضع طبقها باتزان على بطنها بينما تتناول الوجبات.

وكما حدث مع ابنها الأول، لم تشك أمي أبدًا في أنها تنتظر ولدًا. "لست بقادرة على إنجاب الإناث" تقول بفخر. وهو ما لم يكن يمنعها من تصفيف شعري بمكواتها عندما تأخذها الرغبة في ذلك. وكانت تقول أيضًا إنها لا تريد أبدًا طفلًا ثالثًا، مقتنعة بأنه سيكون مشوّهًا أو منغوليًا. ومرة سمعتها تقول مستنكرةً: "إنني أرنبة حقيقية"، لتعبر بهذه الصيغة المجازية عن موهبتها في الوقوع حبلى ما إن تمارس الحب، وأحيانًا حتى في أثناء دورتها الشهرية. هي لا تعلم حتى كم مرة أجهضت. تقريبًا خمس عشرة مرة، تعترف دون ضيق. كان أبي يساعدها أحيانًا في ذلك. ومعًا جربا تقنيات متعددة. كان ذلك يتم في الظهيرة، عندما نكون أنا وأخي في المدرسة. وفي يوم اضطرت فيه لإجراء العملية بمفردها، سرّبت أمي ليترات من محلول "الميركروكروم" داخل فرجها لتقتل الجنين. وتم انقاذها من على حافة الموت بعد نزيف داخلي.

وضع ميلادي حدًا للمرحلة الجزائرية لأبويّ. بمسؤوليته عن طفل ثان، تسرح أبي فعليًا من التزاماته العسكرية، بالنسبة له كانت الحرب قد انتهت دون أن يطلق فيها طلقةً واحدة. وهنا كانت إحدى تبعات ظهوري على سطح الأرض. والداي كان بإمكانهما أن يبتهجا بمواجهتهما للحدث السعيد في قلب ما كانت تعرف بـ"الأحداث"، والتي بالتأكيد لم تكن سعيدة بهذا القدر. ومع ذلك، كان عليهم التخلي عن ذلك التقارب الفرنسي الجزائري الذي كزساه في سرير لذاتهما. وفي الواقع، فإن أمي رفضت البقاء في إقليم القبائل، على الرغم من أن عشيقها استحثها على ذلك، وتفزق التالوث ليختفي من الوجود، إلا من عيني أمي عندما تنظر لي.

لفترة طويلة امتنعت أمي عن الإفصاح عن اسم طبيب مستشفى تيزي أوزو. وعندما أفصحت عنه أخيرًا، سجّلته في دفتر ولم أعد ثانيةً للتفكير فيه. ولم أسع أبدًا للتعرف إليه. ولا هو سعى.

من ملابساتمولدي تبقى لدي الانطباع بكوني طفل حرب، لا يفصح عن اسمه الحقيقي بين أشياء أخرى. كذلك وعيي بالتاريخ غير متطابق مع الرواية الرسمية، أقل بساطة ومرضًا من تلك التي يضطلع بها المخوّلون

بكتابته. وفي نفس الوقت عندما حان وقت "الحزبة الجنسية" المزعومة، كنت أنا ثمرتها قبل الأوان. لم يكن أبواي بحاجة لأي شعارات ليستمتعا بها بلا قيود. بوكاشيو وأريستوفان كانا دائما بالنسبة لي قريبين من الحقيقة، كذلك دي ساد وجورج باتاي، وبالذات ذلك الأخير لأنه يحمل في اسمه نفس الأحرف التي يبدأ بها اسمي.

مكتوب في البطاقة العائلية لوالديّ أني من مواليد ٢٢ يونيو ١٩٦٠. وفي المدرسة تعلمت مبكرًا أنه في ٢٢ يونيو عام ١٦٣٣ تمت تبرئة جاليليو أمام محكمة التفتيش الرومانية، وفي ٢٢ يونيو ١٩٤٠ وقع بيتان اتفاقية الهدنة مع هتلر في عربة قطار. ولأسلّي نفسي، كانت لدي عادة أن أكتب تاريخ ميلادي بطريقة جبرية، متوازنة تمامًا، متتالية الأرقام ٢٢ ٠٦ ٦٠ كانت تبدو لي وكأنها تخفي متناظرة حسابية غامضة مميزة لي هذه المرة عن الجموع.

كانت سنة ١٩٦٠، وفقًا للتقويم الجريجوري سنةً كبيسةً، يوم ٢٢ يونيو يوافق إذن مطلع الصيف. إنني أنا من يطيل النهارات. هكذا كنت أقول متبجحًا لفترة طويلة. وعندما صارت حياتي أكثر ظلامًا فضلت أن أقول إنني أنا من يقصر الليالي.

النساء الثلاث اللاتي عشت معهن حتى الآن، لديهن على الأقل نقطتان مشتركتان. كلهن كانت لهن علاقات صراعية مع الأب، وكلهن وُلدن في الفترة بين منتصف سبتمبر ومنتصف أكتوبر. أي قبل يونيو بتسعة أشهر. بيني وبينهن كان هناك دائمًا اجتياز الشتاء والربيع.

تلك التي يقترب تاريخ ميلادها أكثر من تاريخ ميلادي، ولدت في ١٨ سبتمبر. بعد أربعة أيام كنت سأعتقد أني في حضرة سر تناسخ روحي، كما يقولون. ولدت هي في عام ١٩٦٨، كان عندي إذن ثمانيةأعوام، وبعدها بتسعة أشهر كنت سأبلغ التاسعة. وفي نفس اللحظة اختفت إلى الأبد ماري بلانش، التي كانت بالنسبة لي الأولى بينهن جميعًا. أحيانًا ما كنت أفكر أن هذين الحدثين متصلان، وأن تلك التي جاءت إلى الدنيا شهدت على اختفاء الأخرى، للحفاظ على توازن ما، لو لم يكن في الكون، فعلى الأقل في حياتي.

كان عمري ثلاثة أسابيع عندما نقلتنا طائرة "بريجيه" بمحركين، أنا وأبوي، من الجزائر العاصمة لمدينة ليون، حيث كان من المنتظر أن يكون في استقبالنا أبي في العماد. واجهت رحلتنا الجوية عاصفةً لا يزال والداي

يتذكرانها حتى الآن. كنت أبكي طوال الرحلة. وكانت كل أجزاء الطائرة تقرقع، إذ تتلاعب بها الرياح والأمطار. ووجد قائد الطائرة أنه من الضروري أن يأتي بنفسه ليطمئن الركاب. وانحنى على المهد المحمول الذي يحتويني، راغبًا أن يهدئني، فتضاعف بكائي.

هذه الرحلة المتقلّبة لا بد وأنها قد تركت آثارها. فطوال طفولتي كان يحضرني نفس الكابوس عن وجه عابس يقترب من سريري بسرعات مختلفة، ثم يهبط فجأة نحوي، بسرعة بطيئة. كما أنني لم أغير أبدًا حبًا بحب، أو أتغير في حياتي أو أتخذ موقفًا جديدًا دون أن يصحب ذلك عاصفة. والفكرة هي أن التغير أصبح مقرونًا لدي بالفوضى، لدرجة أن الاضطراب استطاع أن يقنعني أحيانًا بفكرة التغيير نفسها. أتخيل أحيانًا أنه لو كانت السماء رائقة بين الجزائر العاصمة وليون، لاستطعت أن أجتاز بعض الأحداث بنعومة، وربما الحياة نفسها.

كان أبي في العماد يقطن عند مخرج مدينة ليون في قلعة "شوفالييه دو لا بار"، الذي كان مشهورًا بأنه آخر من أعدمه النظام القديم، بعد أن تم تجريسه في موكب ديني. تحيط بالقلعة حديقة كبيرة. نوع من عزبة صغيرة من القرن الثامن عشر، قامت بلدية "فولكس او فيلين" بقصقصتها عام ١٩٧٤ تاركة بناية خضراء، ذات قبح صار معممًا. تضم الآن دار سينما تعاونية. الحقول التي كانت تحيط بالقلعة عام ١٩٦١ تحولت اليوم لبارات وتجفعات على مساحة كيلومترات لمساكن شعبية تثير في ساكنيها الضجر حد الانفجار.

سكن أبواي في جناح، بينما كان أبي في العماد وزوجته الشابة يسكنان جناحًا آخر. هذه الحياة الفحبة الخفيفة استمرت لعام. وفي عيد ميلاد زوجة أبي في العماد، اشترى لها سيارة صغيرة كانت تحلم بها. ولدى خروجها الأول بها اصطدمت بشجرة جميز، وماتت على الفور. لم يستوعب أبي في العماد أبدًا أنه قدم الموت لزوجته هدية، وصار مرتعبًا من كل ما يحيط به. وكان على أبوي أن يغادرا المكان. ولم يعودا لرؤية من كان المفروض أن يضطلع بتعليمي الديني أبدًا.

وفي ليون سكن أبواي في حي "لا كروا روس". ولم يتم ذلك بسهولة. لم يكن لديهما أي نقود، إذ قطع أبي علاقته مع عائلته، بعد أن هدد أباه بالزواج من "زنجية". بينما لا تستطيع أمي الاعتماد على والديها بالرواتب التي يتقاضيانها كعمال في مصانع "ميشلان"، والتي تكفي بالكاد

احتياجاتهما. وهكذا، بينما كان أبي يبحث عن عمل، كانت أمي تدور على الفنادق بحثًا عن غرفة لمبيت الليل، وكان لا بد لهما أن يبذلا الفندق كل يوم، إذ أن وجودي لم يكن مرحبًا به في مثل تلك المؤسسات.ولحسن الحظ فقد كنت رضيعًا حكيمًا للغاية، وفي أغلب الأحيان كانت أمي تضطر لإخفاء وجودي، بتهريبي داخل حقيبة،بينما هي تمز أمام الموظف.

وكثيرًا ما حكى لي أبواي أنهما إذ وجدا نفسيهما عاجزين تمامًا، اضطرا للاستغناء عن الطعام لثلاثة أيام، للاحتفاظ بما تبقى لهما من نقود، لمصاريف رضعتي الصناعية.

بحثًا عن الموارد، انتهى أبي بأن اتصل بوالده. وقد وعد الأخير بمساعدته، بشرط أن يتخلّى عن "موسيقى الزنوج".أخفى أبي الدرامز واستقررنا في بوا-كولومب، حيث اكتشفت أن لي شقيقًا يكبرني بعامين ونصف، واكتشف هو أن له شقيقًا أصغر وأبوين.

في عيد ميلاده الخامس والأربعين، أهديت لأبي درامز صغيرًا، لعب عليه في الأمسية، ثم وضعه في الصباح التالي في المخزن، ولم يعد للمسه أبدًا.

في أثناء بعض الأمسيات المبهجة المنتعشة، كان يحدث أن يسمع أبي شيئًا من الجاز في الراديو، فكان يفتح لفافة سباجيتي ويقسم محتوياتها قسمين، ويستخدمهما كعصوين للعزف على الطاولة والأطباق والأكواب، وبينما يعزف كانت السباجيتي تتكسر وتتطاير في كل الاتجاهات، وعند نهاية المقطوعة لم يكن يتبقى له شيء في يديه. وبعدها لأيام كنا نجد قطع السباجيتي متناثرة على الموكيت.

كان رواق بوا-كولومب بيئًا كبيرًا تستحيل تدفئته في الشتاء. وفي الصباح كان يتوجب الدق بالأيدي والأرجل على السلم الصاعد إلى المطبخ، لإزاحة الفئران.

كانت هناك مربية تُشرف علينا، أنا وأخي. اسمها مدام جيومو. أفصح أخي بعد سنوات أن ذوقه في حب الرجال ربما يرجع لذلك الاسم: كان معشوقه الأول يدعى جي.

لا أحتفظ بأي ذكريات لمدام جيومو، بخلاف تلك الذكرى الباهتة للصفعة القوية التي ضربتني إياها، لدرجة أنها أسقطتني من فوق كرسي الأطفال، وانشرخت جبهتي لنصفين. وفسرت مدام جيومو ذلك لأبوي،

بأنني اصطدمت وحدي بزاوية الثلاجة. وتبقت لدي من هذه الكذبة ندبةٌ، تبدو وكأنها من البارحة. كرفض من رأسي أن يحاك على الشرور التي يحتويها. في كل الصور التي تظهرني طفلًا، تختفي تلك الندبة خلف شعري المسدل الذي يخبئ جبهتي، عندما تركت والدي، أرجعت شعري إلى الخلف وبدت الندبة في وضح النهار طازجةً ووردية وغير ملتئمة.

ومن غير النادر أن بعض الناس، وعلى الرغم من أنهم يعرفونني منذ فترة طويلة، يندهشون من ذلك الجرح الذي أحمله على جبهتي. لم يلحظوه مسبقًا، ويظنونه حديثًا. أفسر لهم ذلك حينها أنها أمي قد عضتني.

انتقلنا للعيش في "أوبرفيير". وذات مساء عادت أمي من العمل وتمددت لتستريح هنيهة. وكان أبي قد ذهب ليأتي بنا أنا وشقيقي من عند المربية. وفجأة سمعتني أناديها "ماما" ثلاث مرات. كان صوتي يصلها نقيًا لدرجة أنها اعتقدت، وهي غافية، أننا قد عدنا دون أن تشعر، وأنني أناديها من على حافة سريرها. ولكن الوقت كان ليلًا والشقة خالية. وفي هذه اللحظة تحديدًا دق جرس التليفون ليعلن لها أبي أنني قد دخلت المستشفى لحالة طارئة. كان وجهي قد تشوه بالبثور، ولا أستطيع التنفس وأشعر باختناق خطير. وقد اعتقد الأطباء إصابتي بالدفتيريا التي كانت مرضًا قاتلًا في ذلك الوقت.

لتجنب أي نوع من العدوى، تم وضعي في حجر صحي بغرفة منعزلة. وكان والداي لا يستطيعان الاقتراب مني، ومن خلف لوح زجاج، كانا يرسلان لي قبلات لم تصل أبدًا. فقط الممرضون بأقنعتهم وقفازاتهم كان لهم حق الدخول عندي. وكانت أمي تبكي لرؤيتي في هذه الحالة. وللمرة الأولى كان حبها عاجزًا.

هذه الحالة من العزلة التامة استمرت سبعة أيام بسبع ليال، حيث واصلتُ الهزال داخل ذلك التابوت الزجاجي، حتى إنهم توقعوا موتي. كان عندي بالكاد أربع سنوات.

كشفت التحاليل في النهاية أني مصاب بنوع من البكتيريا العنقودية. وتكفل البنسلين، الذي كان دواءً حديثًا في السوق أيامها، بالقضاء على مرضي. وفقدت في هذه الأثناء حاسة الشم، وهو ما لم يلحظه أحد. أنا نفسي أخفيت ذلك الأمر طويلًا خلف إستراتيجيات استطعت تطويرها. أعلن مثلًا بحماس أن طعم الليمون زائد في السلاطة، بعد أن تكون قد

فاجأتني إحدى بذوره في الصلصة. لو كنت ذكيًا فذلك لأني استطعت أن أخدع عالمي أني قد صرت كذلك: ألم يكن على أن أدرس المظاهر لأعطيهم معنى كنت قد فقدته. وهكذا عرفت مبكرًا أن المحتمل لا يختلط أبدًا بالحقيقة، ولا ماهو حقيقي بتمثيله، وهو ما أبعدني سريعًا عن عصري. إذن فقد أصبحت شديد الانعزالية في فترة ميكرواليس فقط لأن علي أن أخفي عجزي عن الشم، ولكن لأنه لا تواتيني أي رغبة في فعل ذلك وسط الناس، إذ كان بإمكاني خداعهم بمنتهى السهولة.

في حدود سن العاشرة، جرؤت للمرة الأولى على الإفصاح عن عاهتي. "لا تقل سخافات" قالت لي أمي. فلم أعد للكلام في ذلك، وأمعنت في تطوير ملكاتي الذهنية.

في المدرسة الابتدائية، حصلت على أعلى الدرجات في التعبير، إذ حكيت عن سوق مراكش، بألوانها المدغدغة وروائحها الفسكرة. وقرأت المعلّمة موضوعي أمام كل الناس، بل حتى إنها مزرته على الفصول الأخرى. كان هذا أول نجاح لي في العالم. وقد جعلني ذلك أفكر في الأدب وفي الدجل: فأنا لم أذهب أبدًا إلى مراكش ولا أملك حاسة شم.

"العنقوديات الذهبية"، لطالما فتنني هذا الاسم. لم أكن فقط فخورًا بأني مرضت بذلك المرض الذي يثبت صعوبة بالغة في إملاء حروفه، بل كنت أتلذذ بمغامرةالجنوح اللفظي، بعيدًا عن معجمي اليومي. كان ذلك كالتلفظ بكلمة بذيئة بكامل الحصانة، أو كالتكلم بلغة محظورة. وفي أحد القواميس اكتشفت أن ذلك المرض الذي كدت أموت به، كان يُسمى أحيانًا بـ"داء الملوك".

استنتجت أيضًا أن الموت كان استثنائيًا وغامضًا لمّا كان اسم المرض طويلًا ومعقّدًا. لم أكن لأتراجع عن هذا. كل مرض يقل اسمه عن خمسة عشر حرفًا منذ تلك اللحظة لامعنى له. وعندما اتضح أن أبي مصاب بالسرطان، لم ينتابني القلق بشأنه، إذ لم أتخيل أن كلمة من خمسة حروف يمكن أن تقضي عليه، بينما كان -كالجميع- قلقًا، على الرغم من ذلك، ففكرت أني عديم الإحساس.

وفي المقابل، صدمت عندما أدخلوه المستشفى، بسبب التهاب حاد في الغشاء البريتوني: وفجأة، بدا لي موته قريبًا بشكل رهيب، لدرجة أني شعرت بالتوغل في الغرفة التي كان يرقد فيها، مع ذلك فقد نجا أبي منها، وعلى حافة سريره، كانت أمي تمزح. وطلب هو ألا نضحكه، حيث كانوا قد

خاطوا له بطنه للتو، وأقل تقلّص سيصيبه بمضاعفات. لقد عانى أبي كثيرًا، وفي صمت.

كان "العنقوديات الذهبية" هو المرض الوحيد الذي أدخلني المستشفى في طفولتي. فالتهاب اللوزتين، والناميات الخبيثة، والتهاب الزائدة الدودية، كلها نجوت منها. وما رفضته دوما هو أن يختنوني. على المائدة كان يحلو لأمي أن تحكي أن الحكيمات في مستشفى تيزي أوزو، بينما كن يغسلنني من سوائل الولادة، قد سألنها بصوت ماجن فيما يبدو "هل تريدين أن نقطع له؟" وإذ تقول هذا، تنفجر أمي في الضحك، وترددها أكثر من مرة، كما لو كانت تغني "هل تريدين أن نقطع له؟" وهو ما كان يجعلها تتلوى أكثر، ومعها الضيوف. لم يهتم أحد بأن يشرح لي أن الأمر كان متعلقًا بختاني. وهو ما لم يكن ليغير شيئا من الأمر إذ إن أمي تضحك أصلًا من سوء التفاهم. ولكن أنا كنت أرتعد لسنوات من فكرة أنهم يقررون جنس الأطفال بعد مولدهم، وأنني أصبحت ولدًا لا بنتًا وفقًا لإرادة أمي فقط. ماذا لو كانت قالت نعم؟

ومنذ إصابتي بالعنقوديات الذهبية، لم أسقط مريضًا أبدًا، وبدت حياتي وكأنها تسير منذ نحو أربعين عامًا في حالة توافق مع بنيتي الجسدية، أو العكس صحيح، وذلك على الرغم من بعض الإفراط، أو لهذا السبب نفسه. لم أعان أبدًا من الإمساك ولا من آلام الصداع. ولا أسفيهما أمراضًا تلكما المرتين الوحيدتين اللتين اضطررت فيهما لدخول المستشفى: الأولى بسبب كسر مضاعف في الفك بعد الاعتداء علي في ردهات المترو، والثانية بسبب قطع تام في وتر الكعب في أثناء مباراة في تنس الريشة بينما تقترب ولادة ابنتي.

والحقيقة أني لا أحتفظ بأي ذكريات عن العنقوديات الذهبية. أو بالأحرى لا أملك أي ذكريات غير تلك صنعها أبواي، وهم يتكلّمان عن ذلك الحدث الأكبر في طفولتي كأكبر المخاوف التي تعرضا لها في حياتهما. لم تتنوع رواياتهما أبدًا. فلمعرفتهما أن ذلك المرض يصيبنا نتيجة شرب الماء الآسن وأني لا بدّ قد أصبت به نتيجة لَعقي لزجاج نافذة القطار الذي كان علينا ركوبه مساء كل أحد، للعودة من بيت جدي. "كنت تضع كل شيء في فمك" تؤكّد أمي.

بعد نحو خمس وعشرين سنة قابلت فتاةً شابة في قطار كان يقلّني من برلين، كانت نائمةً مستندةً على شباك العربة. وعندما مررت في

الطرقة، فتحت عينيها وبدت وكأن صورتي قد اختلطت بحلمها: وفي اللحظة التالية كانت وراني متعلّقةً بكل حركة من حركاتي، وأحبتني لسبع سنوات تالية حبًا عنيفًا أمسك بتلابيبي. كانت تُدعى لورنس. ربما من الخطأ أن نعتبر "الماء الآسن"[1] اسمًا. وكانت تعاني أيضًا من مرض جلدي.

أنفجر في الضحك، عندما أتبين أن هذا اللقاء قد أعاد تركيب ما قد حكاه لي أبواي عن كيفية التقاطي عدوى العنقوديات الذهبية في أدق تفاصيله.أكف عن اليأس من حب كان يبدو لي حتى لحظتها قاهرًا وكارثيًا. فصدمة الغرام التي شكّلها لقاؤنا كانت صدمة سامة.

ألم أتوقع ذلك من قبل؟ بعد لقائنا بقليل، قالت لي لورنس "أنت تعجبني" وبما رددت وأنا أظن نفسي أتخابث: "عن أي جرح تتكلمين حضرتك؟"[2] فقد حافظت على مخاطبتها بصيغة الاحترام فترة طويلة. ولم تخب توقعاتي. فقد توالت سبع سنوات عاصفات، أسوأ من سنوات السيست مع سيليمان[3]، أو للملذات الوحشية التي لا تنتمي إلا لعالم الأمراض، المظاهر الأخيرة للحياة عندما لا يتبقى لها خيار آخر.

انتهت فترة الحضانة لعلاقتنا سريعًا. حيث تدهور كل شيء بعد بضعة أشهر رائعة محمومة. كان لديها نوع من العدائية تجاهي، متواصل في البداية ولكن في النهاية انتهى بأن استسلمت لذلك الشعور ليلتهمها. كانت تخالفني بخصوص أي شيء، ولم نكن نتفق على أي شيء، سوى في السرير. في كل لحظة كانت تبتز مشاعري، لكنها لم تكن تحبني أبدًا فوق ذلك إلا عندما أكون غائبًا، كان ذلك كما لو كان حبها لي يريد أن يستغني عني، وكنا كالليل والنهار في إنهاك من اختلافهما المتواتر. في بداية الصيف أعلنت لها أنها ليست فتاة بالنسبة لي. أشياء كثيرة كان تصدمنا الواحد في الآخر، وما يلي ذلك لا يمكن أن يكون سوى كارثة، ولم يكن لديها أيضًا سحر عدم التوقع بتصرفاتها. كانت لورنس ترفض الاستماع إليّ. كنا جالسين على سلالم إحدى الكنائس. وأرادت أن نتزوج.

وقد طردتها في أكثر من مناسبة، لتعود في كل مرة، وكنت أستسلم دائمًا. كنت أمقت ضعف الشخصية الذي أصابني حيالها. حتى الليالي التي قضيتها في أسرة أخرى كانت تقودني إليها. لم يكن أحد قادرًا على المتعة مثلها. كان يكفي أن تلمس نهديها حتى يأخذ جسدها كله في الارتعاش. عيناها شديدتا الزرقة كانتا تجنحان نحو الأسود البحري ولا تثبتان على شيء، وكنت أشعر أنني مشفوط داخل عدم يخبرني بأني لا شيء، ولا

حتى تراب، ولا ذرة. لأحاول العودة للوجود كنت أقذف، ثم أنتصب، في إثارة مستمرة. معها كان الحب يعبر عن نفسه كتراكم ضخم للذات، والذي كان يحيلني، كما لاحظت، إلى كائن هزيل مائع.

كل يوم كانت لورنس تهاتفني لتخبرني أن أعتني بنفسي، وفي فمها نبرة حنان تدوي كتهديد. كما كان لها طريقة لتقول لي "أحبك"، تكشف عن عشيق آخر، علاقة أخرى جديدة، لم تكن غيرة، فأنا لم أكن أطلب منها التفاني في الإخلاص، ولا أن تُمعن في إذلالي بذلك الشكل المفضوح. عدد قليل من أصدقائي كانوا يرفضون مبادراتها. ودون أن تكف عن ترداد أنها تحبني، كان سلوكها يدوس بدقة على كل ما كنت أعتبره قيما، ورأيتني أرتكب الخيانة بحق نفسي باحتمالي لما لا يُحتمل. "قلقك من الموت يفتالني"، قلت لها مصرًا على إفهامها. أعلنت بوضوح وبقوة أنها تحب كل الرجال، كتلك التي كنت أعرفها قبلها عندما اعترفت بالنقيض، وكان علي أن أجابه نفس النفي. نفس الخوف.

كانت تتصرف كأنها تريد أن تأخذ مكاني، ورأيتها تحاول أن تصنع مني امرأتها، وفقًا للفكرة المعروفة التي تقول إن الرجل لا بد وأن يتصرف كوغد. وفي يوم ظنت أنه سينمو لها قضيب، كان الأمر عبارة عن خُزاج له شكل قضيبي بطريقة مذهلة، نصحتها أن تذهب لترى الطبيب. "أنت لا تحتمل أبدا أن يحدث لي شيء طيب" ردت وهي تغلق فخذيها. واستمرت في التردد على الاختصاصي لفترة طويلة.

فكرة أن أقاومها كانت تجعلها تجن. كانت تعتقد أني أتبع تكتيكًا معينًا. أو أني أعاني من مشكلة نفسية لا بد أن أعالجها. وكان لديها حلول لحالتي. "لابد أن تكف عن رفض الحياة" كانت تقول لي. وأرد عليها "لا تعتبري نفسك الحياة. أنا لا أرفض سوى الحياة التي تقذمينها. وهو ليس خطئي فالأمر يكمن هنا" وهكذا على التوالي، لمدة سبع سنوات.

ما كانت تفعله باللغة كان أكثر شيء يخنقني. كان لديها كلمات تملأ الفم وأخرى فارغة، وأخرى كونية تقذفها في الهواء دون تحسب لأين ستقع. لا شيء مما كانت تقوله كان يلزمها. كان بإمكانها أن تقول ما يتناقض مع ما تفكر به، وتتصرف بنفس الطريقة. لقد كان ذلك مبدأ. الاستمتاع كان يقوم لديها مقام التفكير. كانت ترغب في الانتفاع من كل شيء. الانتفاع كان كلمتها. يجب أن ننتفع ولكن أن نحب أن نعيش، أن نكون، لم تكن نوعا من الانتفاع بالنسبة لي. كان الأمر يتعلق بأفعال

مختلفة. العالم لم يكن كعكةً يجب التهامها قبل أن يفوت الأوان. أي عالم؟ أي كعكة؟ على الرغم من نهديها الصغيرين وحساسية بشرتها المفرطة، لم أكن أستطيع تحقل تركيب جملها. عندما كانت تتكلم تكون ملايين الناس، وكان ذلك كثيرًا من البشر بالنسبة لي.

كل يوم كانت تركل التليفزيون الذي كنت أنتهي بمشاهدته كسكران، كي لا أرى أو أسمع شيئًا آخر. لم أكن أريد أن ينتهي بي الحال كأونراث[4]. العقاب الذي كانت تبحث عنه كان يبدو لي غريبًا. الصفعة القوية التي ضربتها بها مرةً لم تجلب لي أي لذة. لم يكن مثلي الأعلى أن أكون قواذا أو جيجولو. وعلى أنقاض مشاعري العائدة تجاهي، لم أعد أهتم إلا بتكوين أجساد مضادة لها. وهكذا كان بقائي على قيد الحياة، فيما أعتقد، كان علي أن أقاوم أربع سنوات العدوى التي أصابتني من الداخل كي لا أموت.

تعلّمت كراهية نفسي، ثم الاشمئزاز منها. وذهبت حتى التلصص على تليفونها كي أتنصت على محادثاتها بأمل اكتشاف ما فاتني من تفاصيل في علاقتنا. وقد بلغت حد التقيؤ في الحمام عند سماعها تتكلّم عني. كانت تضحك بشكل رائع. وبعد إنهائها للمكالمات كل مرة تقريبًا كانت تجيء لتحييني في مكتبي الواقع في نفس الطابق، وكما لو كان بالحركة البطيئة كنت أراها تتقدم مبتسمة نحوي وتحيط عنقي بذراعيها، وتقول لي إنها تحبني. وعرفت حينئذٍ ما الذي تعنيه الشفقة على الذات. لم ينج عشاقها من الرجال والنساء من تلك المحادثات، وقد قذرت الطريقة التي تزوج بها لصعودها الاجتماعي: كانت تقدم نفسها لكل شخص، وتجعله يعتقد أنه الوحيد، كان ذلك يتملّقهم جميعًا بنفس الدرجة. الشكل الذي كان يتخذه بؤسها كان يؤثر بي، لو لم تكن تضعني في منظارها الموازي. كنت سأضحك من دروس الأخلاق التي تعطيها، لو لم تكن تصدقها هي نفسها. كان ذلك فوق طاقتي.

كنت متدهورًا لدرجة أني لا أجرؤ على الثقة في أي شخص. كانت حياتي تشبه غرفة معزولة لم أعد أستطيع الخروج منها، وحيث أحتضر بلا نهاية. كنت أشعر بالعار من نفسي. أتهم نفسي بعدم القدرة على الحب أو على ترك نفسي كي تُحب. كنت أرتعد لدى رؤيتها تقترب. مشاركتها نفس الهواء كانت تخنقني. كنت آوي إذن لثورات الطفح الجلدي أو إلى شعري خلال المعركة، وهي الأماكن الوحيدة التي كنت أجد فيها الملجأ. ولكني لم أكف عن الرجوع إليها كل ليلة. لكني كففت عن الاعتقاد في وجود فتاة صغيرة يرتعش ذراعاها مطبقة قبضتها بيأس خلف ظهرها، وتيقنت أن

العنقوديات الذهبية لا يمكن أن نعقد معه معاهدة صلح.

قضت واحدة اسمها انستازي-لويز. وهو ما يظل بالنسبة لي الاسم المثير للبنسلين على الإطلاق. لقد أخذت بيدي في منتزه شاتو، وكان مرحها القادم من جزيرة ترينداد بمثابة ترياق للألم الفرنسي الذي حطمني. كانت لي كتبة المولي التي قيل إنها حمت عوليس في الأوديسا من القوة الجنسية لسيرس، الساحرة التي حولت البحارة الراسين على جزيرتها إلى خنازير. جويس الذي تذكر هذه القصة لاحقًا، جعل من مولي شخصية في روايته "عوليس"، في حالتي لم تكن روايةً.

ثروتي العريضة كانت دائما لها أسماء بحرف الياء: ليلي كيم، فاليري، أوريلي، ميلاني كارولين، وعدد من الناتالي وبعض الكاترينات، بيرجيت، وكورين... معهن كنت أشعر دائمًا أني منتعش وأدين لهن بعدم إصابتي باليأس من الحياة. ومن جهة أخرى النساء الثلاث اللائي عشت معهن هن جاييل وفابيان ولورانس. بالنسبة لي فإن الحب هو مسألة حروف متحركة.

وعادت انستازي إلى بلادها. فكرت قليلًا أن ألحق بها، حتى أعلنت لي لورانس أنها توقفت عن أخذ الحبوب. وبعيدًا عن أنها فاجأتني، فقد بدا لي قرارها أكيدًا. لقد نجاني البنسلين ولكن أليس من المنطقي أن يكون مبرمجًا على إخراجي من الفرقة المعزولة؟ فكرت أنها مجرد أيام سعيدة أعلنت عن نفسها وتخليت عن انستازي. أصبحت لورانس حبلى. وقد تكون المرة الأولى التي أشعر بالاتفاق معها كأن حجابًا قد تمزق فأعادها لي. وكففت فجأة عن أن أكون رجلًا في الرابعة من عمره. وأحببتها في النهاية دون تحفظات. وعندما ولدت الطفلة الصغيرة كانت فرحة استثنائية. كانت لها عيناي وجبهتي.

بعدها بتسعة أشهر أعلنت لي لورانس انفصالنا. كان لا بد لها أن تصير أمًا كي تقرر ذلك "أستطيع أن أتركك بعد أن صنعنا طفلًا، أعرف أنني لن أفقدك إلى الأبد" هكذا قالت لي عبر الهاتف. وقد حفرت هذه العبارة أنفاقًا بداخلي كحيوان خُلد تم حبسه داخل جسدي. "لكنك تفقدينني منذ البداية" صرخت كالمجنون في السماعة "عن أي *أب* تتكلم أنت؟"[2] ردت هي بهدوء. كانت العقد قد عُقدت. ظننت ساعتها أنه لن يبقى بي شيء أصيل بعدها.

لقد كان الأمر هكذا، الإصابة بالعنقوديات الذهبية. والمدهش ان

لورانس لعبت الدور الذي رسمه لها مرضي (ودون شك لعبتُ أنا في أحلامها دور الشخصية المقدرة لي). لقد اخترتها بشكل كامل، ودونها لم أكن لأستطيع تجاوز ظلامي. لقد أعدت لورانس كل شيء كي لا تخرج أبدًا من حياتي لدرجة إنجاب طفل، أو أن العنقوديات الذهبية سلالة مرضية لا شفاء منها: تعشش في ثنايا الجسد، وحيث الميكروبات تكمن فقط بعد تعرضها للمسار المدمر للمضادات الحيوية، تنتظر استيقاظها بفضل أي ظروف لا نعلمها.

لو كان أبواي قد حكيا لي أني سقطت مريضًا بطريقة أخرى، وأنا أتدحرج على الأعشاب على سبيل المثال، أو وأنا أبتلع الحصى، فبلا شك كنت سأقع في غرام واحدة أخرى، وبالتأكيد ليس في قطار. وهو ما لا يغير شيئًا من فكرة أنيكان يجب أن أعيش من جديد ما كنت قد نسيته. من كل الأسباب التي يمكن أن تدعي تفسير حب بانس، فأنا أفضل قصة العنقوديات الذهبية. نعتقد أننا نفكر في كل شيء، بينما نحن ننسى أمراض الطفولة.

لزمت لي سنوات عديدة قبل أن أستعيد شهيتي للحياة، وحريتي في التفكير والحركة. كنت قد تجاوزت الأربعين بالكاد. ومنذ عمر العشرينكنت أردد لنفسي دائمًا أن حياتي لن تبدأ بشكل واقعي إلا حين أبلغ هذا العمر. هذه القناعة حافظت علي متماسكًا، وسمحت لي بكل الأحلام. وأيضًا حالت دوني والانتحار، وربما دون موتي صغيرًا. ولم أكن مخطئًا: بتجاوزي للأربعين، جاءني الانطباع أني بدأت أحيا، كما لو كان كل ما سبق هو حياة بين قوسين.

متأخرًا جدًا بالتأكيد لاحظت أن الأمر لم يكن يتعلّق بأي أربعينيات، ولكن بتلك التي وضعوني فيها في عمر أربع سنوات، لتلافي كل أشكال العدوى. لقد خرجت منها معافى وانتهت بي الحال أن اقتنعت أن لا حياة بالنسبة لي قبل الأربعين. كانت حدود عالمي هكذا كلمة من أحد عشر حرفًا. وقد تألمت عندما لاحظت أن حياتي تشكّلت من اللغة. وفكرت لو كان الحجر الصحي "الكارنتين أو الأربعينية" لطفولتي لها اسم الثلاثينية، لما كنت مضطرًا أن أنتظر حتى الأربعين لكي أدرك ذلك.

وعند معرفة أي حاسة سأفقد هذه المرة في المعركة، أعتقد أنها حاسة إدراك الاتجاه، وهو ما أصبح عيبًا لدي اليوم، لم يكن موجودًا قبل أن أسقط مريضًا بلورانس. إن تحقيقًا يصف كيف تأرجح القطب الشمالي

المغناطيسي على محوره، ليستقر في منطقة الأردين لم يثر عجبي في وقتها، ولم أدرك للحظة أن الأمر يتعلّق بكذبة أبريل.

سقطت الصغيرة مريضة في صبيحة اليوم التالي لمغادرة لورانس، وبعدها بعام أجريت لها جراحة في الحالب الذي كان قد نما لديها بإفراط مما كان يهدد بتدمير كليتيها. وفي نفس الفترةكانت تعاني كل شهر بمستشفى "نيكر" من الحقن التي كانت تخترق أوردة ذراعيها أو قدميها أو جبهتهاالدقيقة جدًا، حتى يؤخذ منها ملليلترات من دمها بغرض التحليل. كانت تبكي بينما أمسك يديها وأكلّمها بلا انقطاع. وفي إحدى المرات أرادت ممرضة غير ماهرة ومرهقة أن تقطع لها الشريان السباتي، بينما هي تعجل من العملية. وكان لابدّ أن أتعصب لتحجم عن ذلك.

عن هذه المرحلة من حياتها، لا تعرف الطفلة إلا ما قلناه لها أنا وأمها. ومن وقت لآخر تبدي فضولًا ولا بدّ أن نحكي لها عما عاشته ولا تحتفظ منه بأي ذكرى، حتى لو كانت ذاكرتها لم تنس شيئًا من خبرة الموت التي عاشتها في هذه الواقعة. عندما أفكر فيما يمكن أن يعنيه هذا أرغب في تمزيق الأرض والسماء.

لم تستمر الحياة في أوبرفيبيه. استجابة لإعلان صغير وجد أبواي نفسيهما سعداء بتغيير شقة الإسكان الشعبي بالضاحية المملّة، إلى شقة من ثلاث غرف في شارع ماربوف بباريس، على مبعدة خطوتين من الشانزيليزيه.

وهكذا بلغت السنوات الخمس في العاصمة التي لم أضطر لمغادرتها أبدًا. ومن هذه اللحظة فإن ذكرياتي تنتمي لي. أفكر أحيانًا فيما كان يمكن أن يحدث لو بقينا في أوبرفيبيه. إعلان صغير عن العقارات قرر مصيري أيضًا.

ودارت طفولتي في محيط صغير محدود شمالاً بشارع بيير شارون، وفي الجنوب بجادة مونتاني، وفي الغرب جادة جورج الخامس والشانزليزيه في الشرق. كنت أذهب لشراء الخبز من شارع الرينسانس، ومكتب البريد كان بشارع التريموال، ومتجر الألعاب بشارع كليمون مارو، وتقبع مدرستي بشارع روبرت استيان، الذي هو طريق مسدود. وعن طريق نزوة إدارية التقى كل رجال القرن السادس عشر أسفل بيتنا، وكنت أقوم بالصهيل في كل مرة أمرّ بشارع بايار[7]، لم يكن هناك إلا شارع ماربوف الذي يحمل اسمًا مبتذلًا. ومع ذلك هو الوحيد الذي يستحق

لوحته، بما أنه استخدم في توجيه المواشي إلى مورد المياه حين كان الشانزيليزيه[8] مجرد حقول بالفعل.

قرب نهاية الشارع قام أحد المصارف حيث عاش أرسين لوبين. وفي عام ١٩٩٥، سبب انفجار قنبلة في سقوط عدة جرحى بمجرد ما مزت أمي، التي كانت ذراعاها محفلتين بالمشتريات، إذ هي عائدة من متاجر بريسونيك بالشانزيليزيه.

نسكن شقة من ثلاث غرف بالطابق الخامس، دون مصعد. كنا نصل إليها عن طريق سلم الخدم الكائن بنهاية الفناء. في كل مرة لا بد أن نمز أمام الركن الذي تتراكم فيه القمامة. المكان غير مضاء دائما وأتخيل وحوشا تتربص بي في الظل. في أحد المساءات وبينما أنزل بالقمامة مرق من أمامي جرذ سمين من جرذان المجاري. فطوحت أكياس القمامة بشكل عشوائي وهربت.

كانت شقتنا مستطيلة. نشغل أنا وشقيقي نفس الغرفة في آخر الطرقة، وكان لها جدار مشترك مع غرفة أبوينا. ننام على سريرين يعلو أحدهما الآخر، حيث كنت أشغل السرير الأسفل. لمدة طويلة كان أخي يتبوّل في سريره فوق رأسي. الحمام كان يشغل ثلث مساحة غرفتنا، وحيث يحمي بارفان مدخله من النظرات لكنه لا يمنع الأصوات.

في كل غرفة هناك نوافذ وأبواب تطل على الشرفة، والتي تطل بدورها من الطابق الخامس على فناء البناية. ومن نافذة بيير السلم، تقع بين الطوابق بنحو مترين، بإمكان المرء أن يثب فيقف على الدرابزين، ثم يقفز فيطال أحد عوارض الشرفة، وبارتكازه على قوة ذراعيه بالاتكاء على الحافة، يقفز بعد ذلك داخل الشرفة فيكون في بيتنا. وفي الاتجاه المعاكس، فإن الأمر أكثر تعقيدا لأنه سيكون عليك أن تتأرجح لجزء من الثانية في الفراغ، قبل أن تحظ قدمه على درابزين النافذة، وفي تلك اللحظة يكون مستحيلًا عليك أن ترى ما تفعل.

عندما أكون محبوسا يوم الخميس في غرفتي، أو في المراهقة، عندما أخرج في المساء سرًا كنت "أعبر من الشرفة" مرتجفًا من الخوف في الظلام، وفخورًا بتجاوزه.

ينظم أبواي الحفلات في مناسبات كثيرة. وفي حفل تنكري تحولت أمي لأميرة شرقية، بينما أبي يرقص معها في زي الملك فرانسوا الأول. هناك دائما أصدقاء في البيت. في إحدى المرات تحدى ماكس أبي أن

يتعرف على من يعزف الدرامز في المقطوعة التي وضعها في جهاز الأسطوانات. ومخبئا خلف ظهره غلاف الأسطوانة ذات الثلاث وثلاثين لفة التي أحضرها معه. أجلس مرتديا بذلة أمام سماعات الإستريو الضخمة، تحاول عيناي اختراق الغموض الذي يخرج من السماعات. يحبس الجميع أنفاسهم. يستمر هذا لفترة طويلة. وفجأة يخرج صوت أبي بوضوح: "إنه سام وورديارد على اليمين وسوني بين على اليسار". يصفق الأصدقاء. تشعر أمي بالزهو. ماكس يهنئه. وأنا فخور بأبي، وفي نفس الوقت يتسربداخلي شعور غامض: حيث كنت أنتظر اسفا واحدا فقط، كان هناك اثنان.

ماكس هو أفضل أصدقاء والدي. ضخم جدا، يرتدي كوفيات من الحرير حول عنقه وبدلات بأناقة لا تخفى. عندما يصل في مكان ما، يكون دائما كنجم. وهو عاطل بشكل مستمر. يقدم نفسه لأصحاب العمل المحتملين مرتديا ثيابا فاخرة، مدخنا السيجار أحيانا، متعاملامعهم باستعلاء. وحدث أن أحد أصحاب العملقد تم إغواؤه بهذه الهيئة ورغب في الاستفادة منها، وجرؤ على تشغيله ليبيع بوالص تأمين أو أي شيء كهذا، وينتهي الأمر دائما في محكمة العمل.

أعشق ماكس

لفترة طويلة كنت أتخيل أنه أبي الحقيقي.

هو أيضا ضاجع أمي.

الغرام الكبير لماكس تُدعى مونيكا. تشبه لويز بروكس لكنها بحجم أصغر. في حادث سيارة، اخترقت الزجاج الأمامي للسيارة وبقيت مشوهة. لشهور يذهب ماكس لزيارتها في المستشفى فلا تتعرف عليه.

آخر مرة أرى فيها ماكس، كان يعيش مع امرأة ضخمة بساق في الجبس وذراعين مشفرين. ولديهما ابن أسماه ماكس بوريس، تخليدا لذكرى فيان[2].

وذات مساء، سيغلق ماكس غرفته عليه ويطلق رصاصة من بندقية داخل فمه. سيحتفظ أبي بخبر انتحاره لنفسه فترة طويلة.

كل الإجازات المدرسية، نقضيها أنا وشقيقي في سان جيرمان أو لي بمنطقة إيفلين، حيث انتقل جدانا للعيش في بيت على حافة الغابة. كنت كل مرة أجد ديدييه، ابن الحارسين. معا نتسابق بالدراجات، ونبني أكواخا،

ونصيد الضفادع. ولكن في نهاية ظهر يوم ما، وحين كان يدور بدراجته حول البيت الصغير الذي يسكنه والداه، يأخذ ديدييه في الصراخ ويقفز قفزات في مكانه متبوعًا بألسنة صغيرة من لهب أزرق. يندفع أبوه ويحاول أن يمسك بولده الذي يتلوى على الأرض، يعطيه ضربات على كل جسده، ويجزه على الأرض، ويحاول أن ينزع ملابسه. كانت أم ديدييه تتابع المشهد ويداها على فمها. كل شيء حدث بسرعة شديدة. مات ديدييه ساعة أن نقلوهالمستشفى. بينما يمر أمام نافذة المطبخ المفتوحة غلّفهتيار هوائي بتسرّب للغاز، خارج من البوتاجاز، حيث كانت أمه تسخّن وجبة العشاء، فتكفّل قميصه المصنوع من النايلون بالباقي، هكذا عرفنا في اليوم التالي. بعدها بقليل رحل زوج الحرس. كل سكان المنطقة ساعدوا في عملية رحيلهم. كانت يدا أبي ديدييه مربوطتين. خلال عدة شهور سأبحث عن كلمة "نايلون" على البطاقات الملتصقة بملابسي.

يوم الخميس، وبعد أن أكون استنشقت زجاجة أمي حد الغثيان، أسكب بعض المذيب على يدي وأشعلها بعود ثقاب وأهز يدي أمامي وهي في النار، كما لو كنت أؤدي إشارات. وكنت أحرق أيضًا دمى صغيرة على شكل جنود من البلاستيك في الشرفة، أراقبها وهي تذوب وتنكمش على نفسها حتى لا يتبقى منها إلا كومة صغيرة متكلسة.

لاحقًا سيعزفني واحد اسمه ديدييه إلى تلك التي سأرغب في إشعالها بمجرد رؤيتها، وقد انتهت باستهلاكي.

ذات ليلة، يصطحب والدي إلى البيت رجلًا وامرأتين سويديتين - شقراء وسمراء- التقيا بهم في بار أسكوت بشارع بطرس الأول، ملك صربيا، حيث اعتادا الذهاب للاستماع للجاز. أستيقظ على صوت الموسيقى والقهقهات الآتية من الصالون، فأنزلق بالبيجاما إلى الشرفة وأراقبهم من بين خصاص النافذة. أمي تمسك بين يديها بوجه السمراء، وتعبير وجهها مبالغ فيه. أعتقد أن إحداهما تُقبل الأخرى، لكن خصاص النافذة يحجبهما عني في اللحظة الأخيرة، وبلا طائل ألوي عنقي. هذا هو أول مشهد إيروتيكي أراه.

لم أستطع أيضًا تمييز ما يفعله الآخرون، وكان يبدو أنهم مستمتعون، أبي يملأ كؤوس النبيذ ويغير على الإستريوأسطوانات الخمس وأربعين لفة، التي تتكدس أغلفتها بالجملة على الموكيت.

ينتابني البرد بعد نحو ساعة، ولما لم يكن هناك شيء عجيب يحدث

أعود للرقاد. ولكن الضجيج والفضول يمنعاني من النوم على الرغم من الوسادة التي وضعتها على أذني. أنهض إذن وأجازف بالتحزك للصالون، بحجة الذهاب إلى المرحاض.عندي أحد عشر عامًا. يسبب ظهوري انتعاشًا الجميع. فيجلسوني على الأريكة. أمي تقدم لي الجين مع الليمون وماء التونيك. يسألني الرجل في أي عام دراسي أنا. ويبدو أن إجابتي جلبت له السعادة. وقال أيضًا إني يجب أن أعرف أن لدي والدين رائعين. ثم ينصرف عني الجميع. يرقص أبي مع الشقراء. تضحك أمي لما يقوله الرجل في أذنها.

تنتهي السمراء بأن تغادر. لا أتوقف عن تقديم الجين لنفسي. فجأة تذيع أمي فكرة أن يستحم الجميع. يستقبل اقتراحها بالفرح، ويأخذ الجميع في خلع ملابسهم. الأول في التعري هو الرجل، ويتدلّى عضوه رخوًا بين فخذيه. وكان مليئًا بالشعر. لم أكن قد رأيت عضو رجل حتى الآن. تهزه أمي بأطراف أصابعها كجرس وتصيح: "لكنه صغير جدًا". وتنفجر في ضحكة عصبية تقطعها شهقات كصهيل الخيل. يلهو الرجل ويقلّد طرزان وهو يضرب على صدره. آخذًا أمي من يدها ويدخلها نحو الحمام. تصيح أمي: "هيا، الجميع إلى الماء!" وعندها استقرت نظرتها علي فجأة، كمن اكتشف وجودي "هيا يا جريجوار، تحت الدش، بلا كلام!" قالت بحماس. يتدخل أبي ليقترح أني ربما لا أكون ملزمًا بذلك. أتجنب أن أنظر إليه. "كما يريد" قالت أمي بمرح بينما تجري في الظرقة مطوحة أقدامها في كل الاتجاهات لتتخلص من ثوبها.

يختفي أبي والشقراء بدورهم. أجلس بمفردي في الصالون. أرغب في العودة للنوم في سريري، لكن الحمام موجود في غرفتي. أبقى على الأريكة، أحتسي الشويبس لأن الجين قد نفد. تأتي من الطرقة ضوضاء وضحكات وقرقعات مياه. ثم لم أعد أسمع شيئًا. أنتظر. يستمر هذا لفترة طويلة. لا أفعل شيئًا.

أبي هو أول واحد يعاود الظهور. يرتدي بذلةً مضطرًا للذهاب إلى العمل، لأنه يشتغل هذا الأحد. وخلفه الشقراء ملتفة بمنشفة حمام حول وسطها، شعرها في غاية الفوضى. لا أجرؤ على السؤال أين أمي. أبي يأخذ حافظة أوراقه السوداء من عند المدخل، ويلتحف بمعطف المطر. يقول لي إني يجب أن أذهب لأنام. أطيعه.

منكمشًا داخل سريري أنصت لأقل نأمة يمكن أن تأتي عبر الحائط من

غرفة أبوي، حيث أفترض أن أمي هناك مع الرجل الآخر. لكني لا ألاحظ أي صوت، فيتنابني القلق. لفترة طويلة مكثت أتنصت مفتوح العينين. عبر خصاص النافذة بدأ الصبح يظهر. فنهضت ورجعت دون جلبة للصالون.

الشقراء تنام على الأريكة. تغط بهدوء. تغطيها منشفة الحمام بشكل غير كامل. قمت بزحزحتها بحذر شديد، حتى انكشف ثدياها الثقيلان، وبطنها المتثني، وعضو أشقر ومشعر أدهشني. لا تتحرك. لم أتخيل جسدها مترهلًا هكذا، مما أصابني بالاضطراب والإحباط. لا أعرف كم من الوقت بقيت أتأمل هذه الجسد الرخو والغريب، كحوت خارج البحر. متمنيًا وخائفًا أن تستيقظ الفتاة . كنت أريد أن أتمدد بجوارها وأن تأخذني بين ذراعيها، تقبلني وتتركني ألمسها. وجرؤت على لمس ثدييها. لم تتفاعل. وظننت لوهلة أنها تتظاهر بالنوم. وفي النهاية أذهب لسريري وأستسلم للنوم.

عندما أستيقظ سيكون البيت هادئًا. الرجل والشقراء قد انصرفا. أمي مصابة بنوبة حساسية قوية أدت إلى انتفاخ وجهها. على عينيها نظارة شمس ولا تبرح السرير. وطوال اليوم مزاجها سيء.

بعدها بثلاثة أيام تسألني أمي بينما تصب في الحوض وعاء من القواقع: "أتمنى ألا تكون قد ضدمت تلك الليلة." أشعر بالضيق فأجيبها برخاوة. تطمئن أمي فتسترسل. تبتسم وهي تقول:" كانت الشقراء جميلة، أليس كذلك؟" صوتها مليء بالتواطؤ. أبقى صامتًا. "اذهب وأخبر أباك أن الطعام جاهز" قالت أمي بعدم إلحاح، وهي تضع القواقع على طاولة المطبخ. أفكر أن الشقراء كانت تتظاهر بالنوم إذن.

من كل الرسوم المتحركة التي من المفترض أنها كانت متعة بريئة في طفولتي كانت "الجميلة النائمة" هي أكثرها تأثيرًا في نفسي. في غرفتي كنت القديس جريجوار الذي يصرع الملكة السوداء المتحولة إلى تنين. ولاحقًا كنت أقبّل بحماس الفتيات اللائي أقابلهن، متخيلًا أني أوقظهن في النهاية، لكنهن لم يكنّ نائمات أبدًا، أو نائمات في حكاية أخرى لا تنتمي إلا إليهن. لم أكن أفهم. لم أكن أتصور أن من تجذبني لا تكون -بشكل ما- نائمة، حتى ولو لم يكن ذلك فوق الأريكة بالصالون في بيت شارع مارابوف.

"يا للرعب" قال أبي متعجبًا ذات يوم، عندما صرحت لهم برأيي، في أثناء محادثة تافهة، أن امرأتين تمارسان الحب لهو مشهد جميل. "مثير

للاشمئزاز" زايدت أمي. كانت غاضبة بصدق. في ذلك اليوم تعلمت أن النزعة الأخلاقية قد تنافس التهتك.

وفي أثناء وجبة أخرى في أحد المطاعم، قلت لأبي إنني أحبه. بعدها مباشرة أحسست أني تحررت من ثقل ما، كمن سدد دينًا. بدا أقل تأثرًا بتصريحي مني أنا. وفي مواجهتنا، تعض أمي شفتيها وتلوي فمها بحزن ومرارة.

هناك صورة تمثلنا أنا وأبي وأخي نسير في طريق بالغابة. ربما كنت في السادسة. مطبوعة بالأبيض والأسود، وبحواف مشرشرة. وتبدو فيها بهجة شهر نوفمبر. دون شك تمسك أمي بآلة التصوير بما أنها لا تظهر في الصورة. لا أملك أي ذكرى عن هذه النزهة. ومع ذلك هي أجمل ذكريات للطفولة صنعتها بنفسي.

عندما نرتكب أنا وأخي حماقة تثير الغضب، تضربنا أمي بسيف "زورو" البلاستيكي الأصفر الخاصبي. نضحك تحت الضربات متظاهرين بالشجاعة، ونتمسك أحدنا بالآخر، وهو ما يجعل أمي تجن من الغضب. ولكن كل مرة كان يصيبها التعب قبلنا، وفي النهاية يسقط من يدها السيف المؤلم. وعندما تكون قد غادرت، أنظر إلى سيفي معتقدًا أنه من الخيانة أن يوجه نحوي.

كان يحدث أن يصيب أبي الملل من سماعه لثرثرتنا أنا وأخي في غرفتنا. يصرخ حينئذ عبر الحائط: "هذا يكفي وإلا سأضرب أحدكما بالآخر". هذه صياغته. ولما كنت الأخف وزنًا فلم أشك أني من سيستخدم كهراوة، وسأهتم لفترة طويلة بالطريقة التي أسبب بها أقل ضرر ممكن لأخي عندما يُضرب بي.

"تتهمونني بكسر الأكواب ولكن أنا من يغسل دائمًا المواعين" تتمرد أمي من وقت لآخر.

طولها مائة وستون سنتيمترًا، وعندما نشير لقامتها ترد بشكل حاسم "ربما أكون قصيرة، لكن جسدي متناسق بشكل يثير الإعجاب".والواقع إنها ليست فقط قصيرة، يمكن أن نقول أيضًا إنها بعيدة.

في بعض الأيام المتوهجة، كانت تصعد على الطاولة وتلوح بقبضتها، وتخطب: "لو لم يتبق سوى شخص واحد، سيكون أنا".

أبي طاهٍ ممتاز. في أيام الأحاد يتكفل بالمشتريات ويعد الوجبات.

تخصصه هو الأرانب. وعندما يكون في مزاج طيب أو يكون راضيًا عني، يداعب شعري ويقول لي "يا أرنبي الصغير".

استطاعت أمي أن تتوظف في شركة "بيجين ساي"، حيث أصبحت السكرتيرة الشخصية للمدير لويس ميرلين، الذي كان يدير أيضًا"أوروب نيمرو ١" محطة الراديو الشهيرة في ذلك الوقت، وحيث سأترك ذكرى سيئة للغاية بعد ذلك بسنوات حين أعمل للمصادفة هناك، وأعيت فساذا.

ذات يوم، أعلمت مكالمة تليفونية أمي في عملها، أن سيارة قد صدمت السيدة التي تأتي بنا من المدرسة أنا وأخي. كانت سكرانة كعادتها عندما حاولت مدام ليجال أن تعبر بنا والإشارة خضراء، فوقعت الحادثة. لمستها سيارة عن قرب، فتهاوتدائخة أكثر منها مصابة. استقالت أمي من عملها لتعتني بنا.وقد تركت بذلك موقفًا وظيفيًا واعدًا لن تناله ثانية فيما سيأتي. "أبنائي قبل كل شيء" تقول بقوة.

طائش، مشاغب، غير منضبط... تابعتني هذه الصفات طوال أعوامي المدرسية، في نفس الوقت مع تنويهات "تلميذ جيد" أو "تلميذ موهوب". لا يصيبني الملل أبدًا. ذات مساء يوم خميس دعوت عندي ليري وفريتير وجرافيه، ثلاثة تلاميذ كبار من المدرسة لا يفترقون، فقد كانوا من أبناء البوابين. وفي حجرتي ابتهجوا بأشيائي، ووكزوني في ظهري، كما لو كانوا ينتقمون من استقبالهم لمرة في الشقق. في هذا اليوم تحققت من أني لا أحب أن أكون ابنًا لبواب، كي لا أكون مثلهم. هم أيضًا لا بد أنهم يكرهون كونهم أبناء بوابين، وبد لي هذا فجأة. ووجدته أمرًا شاذًا أن يقيموا وضعي المحظوظ واحتقرت احتقارهم. بيننا، اكتشفت عالمًا لا ينتمي لنا ويصيب بالمرارة، وبشكل غريزي، رفضت الخضوع له، وحتى اليوم لا يمكن لأحد أن يقول إنه عدوي دون موافقتي.

في ذلك المساء، استدعتني أمي إلى الصالون. اختفت ورقة فنة المائة فرنك من فوق المدفأة. نظرتها تفتش جيوبي. وانتهت بأن أرسلتني إلى السرير ناصحةً إياي أن أفكر جيدًا.

بعدها بيومين، ليري يلعب في فناء بنايتنا بمسدس جديد. نزلت السلالم قفزًا. ينكر ليري أنه سرق النقود. بجانبه جرافيه وفريتير يسانداه. أحذره أن أبوي يعرفان الحقيقةوأنهم سيخبران والدي ليري، وربما الشرطة، أو الجيش. وذكرت وأنا أحذره كيف أننا أصدقاء مخلصون. تحمر أذنا ليري. وانتهي بأن أعطاني المسدس وما تبقى من النقود، في مقابل

وعد مني أن أحاول تسوية الأمر مع والدي.. بينما أصعد، مزهوًا بنفسي ومن الطريقة التي أدرت بها المناورة مع الأخذ في الاعتبار فرق القوة.

حين تدخل أمي، سأعطيها بانتصار الغنيمة المستردة من الأعداء. تقول: "أهنئك على رد النقود، لكنني لن أؤيدك أبدًا في السرقة" أريد أن أعترض، لكن حماسي أكد لأمي مسألة أني مذنب. وصمتت في النهاية.

منذ هذه اللحظة لم أقل لها أي شيء آخر، كفت عن أن تكون أمي، حتى لو بقيت ابنها.

ماري بلانش هي الأخت الصغرى لفابريس صديقي المقرب. عندما تراهم لا يمكنك أن تخمن أنهما شقيقان، لأنها دقيقة ومشرقة بوجه مربع لطيف، فيما هو طويل وضامر أشقر وأشعث. كان لماري بلانش ندبة على ذقنها تصيبني بالاضطراب ما إن أفكر فيها.

مع ماري بلانش نحاول أن نتبادل النظرات عبر قضبان البوابة الصغيرة التي تفصل فناء مدرسة البنات عن فناء مدرسة الأولاد. نتبادل كلمات قليلة. في الساحة التي يجتمع فيها تلاميذ المدرستين مرةً في الأسبوع، ليتدربوا على استعراض نهاية العام، نغني دون أن تفارق أعيننا "نشيد الفرح" حتى تُعشينا الدموع. وعندما أصعد مرة أخرى إلى الفصل، أظل أفكر فيها لفترة طويلة. وعندما يلتقي أبوانا مصادفة يتمازحون: "هذان الاثنان سيتزوجان لاحقًا". يجهلون أننا في السر قد أقسمنا اليمين بالفعل.

لا أتذكر إلا اسم عائلته: دلامبر. يصل إلى المدرسة ذات صباح ومعه كرية صغيرة من القصدير كان قد سرقها من مكتب أبيه. لم يكن أحد قد رأى بلية رائعةً مثلها، وكل واحد كان يرغب في تفحصها وإمساكها بيديه.

حاز ديلامبر عن طريقها حظوة أغضبتني. هو الذي كان مجرد لا شيء في المدرسة، بلا مكانة ولا موهبة، قد أصبح شخصية مهمة. حتى أصدقائي يمتدحونه، ويجدون به صفات كانوا من قبل محرومًا منها. بلية من القصدير يمكن أن تغير رأينا إذن؟ تُبدل وجه العالم؟ تخترع تراتبية حيث تتوقف قيمتنا فقط على ما نملك؟ قرفي من العالم بدأ من هذا التاريخ.

وخلال يومين كنت أضغط على ديلامبر أن يراهن على البلية القصديرية في مباراة. ويتهرب متباكيًا أن أباه سينهره إذا لاحظ اختفاء

البلية. أسخر من جبنه أمام الآخرين. مرة في مرة أزين له المكسب البراق الذي سيحوزه لو فاز. وأطري على زمالتنا بيني وبينه، أقلل من شأن تهديد أبيه، وأخفض من شأن مهارتي في لعب البلي، وأبالغ في مهارته هو، ثم من جديد أحرجته على الملأ من أجل أن أفقده أعصابه. كل الوسائل متاحة لي لأقنعه، بخلاف العنف الجسدي، لأن الأمر بالنسبة لي لم يكن يتعلق بالحصول على البلية، ولكن بمعرفة من يستحقها.

كلّ بلياتي إضافة إلى المحفظة. رمية واحدة من على بُعد ثلاث خطوات. لو أحرزت سأكسب البلية القصديرية. أو سأفقد كل شيء. ولا تعويض للخسارة. إغراء الربح جعل دلامبر يقرر. المنافسة ستدار في فُسحة الإفطار. كل المدرسة أعلمت. قال فابريس إني مجنون: أخاطر بفقدان كل شيء. لا أهتم. البلية القصديرية لماري بلانش. سوف أفوز.

حولنا التلاميذ يحجبوننا عن المعلم الذي يراقب الفناء. نحن خلف المراحيض. حيث تنحدر الأرضية المسفلتة انحدارًا خفيفًا نحو حائط من الإسمنت. دقّ الجرس. هؤلاء الذين لا يأكلون في المقصف بدأوا في التوافد وجاءوا لمضاعفة الصفوف. أخشى أن يأتي المعلم للتدخل. لن يترك لي ديلامبر فرصةً أخرى. سيكفيه التظاهر بأنه كان قادرًا على المشاركة بالبلية كي ينسحب من الموضوع. لن تكون لي فرصة أخرى.

على مبعدة ثلاثة أمتار، موضوعة بجانب حائط المراحيض، البلية القصديرية تبرق. أنا هادئ جدًا. مركز كما لم أكن من قبل. أشعر أن لا شيء يفلت من صفائي... أضع بليتي المفضلة، بلية قديمة بلون الغبار، اتفقنا أني أستطيع الاحتفاظ بها حتى لو خسرت. يظهر حينئذ فابريس بجواري. كان يتناول طعامه في بيته ويريد أن يكلمني. أقول له إن الوقت غير مناسب. يَلِح. هناك سرّ لديه يرغب في أن يقوله. أوبخه. في ذلك الوقت، لا أنظر إليه حتى. لا أرى سوى بليتي والبلية القصديرية التي تبرق هناك. أشعر بطاقة الزحام فوق رأسي. أفرد سبابتي. تنطلق بليتي إلى الأمام. وتقع بالضبط حيث أردتُ، كما لو كانت بتأثير مغناطيسي. أعرف مسبقًا أنني فزت. هذا واضح، لقد فزت، حينها جاء فابريس أمامي وقذف على بليتي مبعثرًا كل سماء طفولتي.

هل صرخت؟ لا أعرف شيئًا. كان فابريس ممدّدًا بكامل طوله ولا أعرف ما الذي يصنعه على الأرض. لا يتحرك. جسده معقوف بشكل غريب. ودماء تلطخ شعره. كل المدرسة تشكل دائرةً حولي ويحدقون في دون

حركة. إنه حائط عظيم الذي يقف على مسافة مني. كل النظرات مصوبة نحوي. ماذا يريدون مني؟ كما لو كانوا تماثيل. لا أحد منهم يقوم بأي حركة ولا أي شيء. لم أتعرف على أي منهم. لا أرى سوى ألوان الملابس. ألوان كثيرة. لا أعرف أين أضع عيني. السماء زرقاء. ما الذي يحدث خطأ؟ صمت لا يصدق يسود الفناء، ألاحظ فجأة. ما من ضجيج في أي مكان. ما من صرخة. إنه صمت تام. كما لو كانت الحياة بأسرها قد انقطعت. أفكر أن هذا الصمت غير طبيعي. أبقى واقفًا بلا حراك. أرغب في ألا أبقى هنا. أشعر بشيء في يدي. إنها خصلة غزيرة من الشعر مع مزقة من اللحم شديدة البياض تتدلى منها. فروة رأس فابريس. ترفض كفي أن تفتح. لم أعد أستطيع تحريكها. ماذا أفعل؟ ماري بلانش. أخذت أرتجف. كل أعضائي تنتفض. لم أعد أستطيع التوقف عن الارتجاف.

انتزعني أحد المدرسين من وسط الدائرة. يجرني من ياقتي في الساحة حيث يوقفني مُذلًا، ويدي فوق رأسي. أمام كومة من أبسطة الأرضية. يغادر. أحدق في اللون الأزرق للأبسطة. لا أفكر في شيء. أركز حصرًا في الصبغة الزرقاء للنسيج، التي لم أعرها من قبل أي انتباه، والتي بدت لي فجأة مادة رائعة. قطعة من أحد الأبسطة كانت منتزعة كما لو كان قد عضها أحدهم بكامل أسنانه.

أبقى لفترة طويلة في الساحة. عاد الجميع إلى الفصول منذ مدة طويلة. أفكر أن أخي بالتأكيد قد رآني في التو بالفناء. أسمع نفير عربة إطفاء. ثم تختفي. لم يعد هناك أي صوت. أبقى وحيدًا. الساحة شاسعة. لا أحد يأتي. بين الأبسطة سأتخلص من خصلة الشعر التي في يدي. وسأتحاشى النظر إليها.

جاء مدرس آخر ليأخذني. يقول: "أين حاجياتك؟ ستأتي والدتك لأخذك". نذهب لجلب حقيبتي من الفناء. لا أجرؤ على سؤاله عن أخبار فابريس. بجوار المراحيض، سألحظ بليتي المفضلة في الركن. لا آخذها. زمن غير مفهوم يفصلني عنها في الوقت الحاضر.

يتركني المدير واقفًا في مكتبه. يرمقني ويقول لي: "أرجو أن تكون فخورًا بنفسك!" ثم يطالع ورقة لونها بيج أتعرف فيها على صورتي الشخصية. دون أن يرفع عينيه يقول: "هل كنت تعمل أشياء مثل هذه في بلدك، ها، في تيزو أوزو" يقول تيزي أوزو. ويقول أيضا: "وفوق ذلك مع ابن فينويك. حسابك ثقيل أيها الرجل الطيب".اعتقدت أن والدي قد

تحدث لهما مضايقات مع عائلة فابريس. أخفض رأسي.

تصل أمي لاهثة. وجهها حاد. يجلسها المدير على كرسي ويأمرني بالوقوف مذنبًا في الردهة. عندما تخرج أمي من مكتب المدير، تقول فقط: "أرجو أن تكون فخورًا بنفسك".

في الشارع تمشي بسرعة، وأتبعها من على مبعدة ثلاثة أمتار. عندما نصل إلى المنزل، تجعلني أجثو على ركبتي على حافة سريرها، وتنزع سروالي وتجلدني بسيف زورو الأصفر. وعندما تتعب ذراعها ستنصرف. أظل في هذا الوضع طيلة ما بعد الظهيرة. تأتي أمي أحيانًا لتأخذ شيئًا من غرفتها وتصفعني على الكفل عند مرورها. وسيبقى الوضع هكذا حتى يهبط الليل.

بعد ذلك، سأسمعها تتهاتف. "قصة أولاد.. هو كذلك.. لا شيء شرير... تكلم أم فابريس. تقول "مدام فنويك" بتأدب. أدرك أنهم أخاطوا الجرح لفابريس. لا أعرف ما خياطة الجرح، لكنها بالتأكيد علامة جيدة. وهو ما لا يغير شيئًا من الشعور الذي يخامرني بأني قتلته. بأني قتلت.

تحكي أمي على الهاتف ما جرى في الفناء، كأنها كانت هناك. من صوتها أشعر بارتياحها لتغير مسار الحديث. حتى لقد ضحكت قبل أن تنهي المكالمة. ما الطريف إلى هذا الحد؟ ولماذا أعاقب إذن؟ لكني لا أهتم. استحققت أن أجلد، نعم، كان بإمكانها أيضًا أن تضرب بشكل أقوى، فهذا لا يقارن بما طوقني بالكامل، كخوف فظيع فتح داخلي بركة من عدم. ما الذي دهاني؟ من أين جاءني هذا العنف؟ تعذبني هذه الأسئلة في الظلام. لكني أبذل مجهودًا كبيرًا، ولا أتذكر شيئًا. هناك ثقب في إحساسي بالزمن يفصلني عن نفسي. هوة اختفيت داخلها وخرجت شخصًا آخر. لدي الانطباع بأن جسدي خانني. لم أعد أستطيع أن أثق فيه. أقول لنفسي إني يجب أن أراقبها. نعم، سأكون حذرًا من ذاتي من الآن فصاعدًا. وبالتحديد من يدي اليمنى. إنها هي التي نزعت شعر فابريس. ليس أنا. لا يوجد ما هو مشترك بيني وبين هذه اليد.

في وقت لاحق أتذكر أني فكرت أن أقطعها بالسكين الكهربائي الذي يستخدم في تقطيع اللحم ظهيرة يوم الأحد. بقيت وقتًا أغرز أسنان النصل في قبضتي، وأصبعي مستعد لتشغيل السكين. لكن قلت لنفسي إن الألم سيكون لدرجة يستحيل معها مواصلة القطع للنهاية. وانتهيت بإلغاء الفكرة.

وفصلت من المدرسة لثلاثة أيام. ولا أملك أي ذكريات عن عودتي للفصل. أعرف فقط أننا بقينا أصدقاء أنا وفابريس على الرغم مما صار. وفي المدرسة كلها أتمتع الآن بسمعة لا يخطر على بال أحد أن ينافسها. وأنا أخفي عن الجميع أن تلك السمعة تستند على الفراغ.

وحتى اليوم، تقبع دائمًا بلية في قعر جيبي. وتدور في كفي في كل مرة أخرج عملات لأدفع ثمن شيء ما. ومن ناحية أخرى بقيت لسنوات زبونًا مخلصًا لبار بحي مونبارناس، لم أنتبه أنه يقع في شارع ديلامبر. في هذه المنطقة أجيء دائمًا بحثًا عن النسيان، بصحبة أناس يبدون مثلي قد أضاعوا كل بلياتهم.

في العام التالي، ألعب مع صديقي برونو في الفناء، حين يقترب أخي مني: يرغب في أن يكلمني. ويبدو أن الموضوع مهم. في الحال أترك برونو كي أتبعه، أخطو بسرعة بأقدامي، لكن برونو يرغب في أن يستمع لحديثنا، يتبعنا وهو يضحك، ويرفض تركنا لحالنا، لا يفهم أني لا أمزح، فقذفته بسيارة حديدية على رأسه. فسقط منقلبًا. الدم يملأ وجهه. أصبحت عينه مشقوقة تقريبًا. بقيت جامدًا. لا أرتجف ولا أي شيء. فقط مذهول من الدقة الشيطانية لرميتي. كان برونو على مبعدة ثلاثة أمتار تقريبًا، ولم أخطئه كما لم أخطئ البلية القصديرية.

ومن جديد فصلت لثلاثة أيام من المدرسة. لم أهتم بالأمر. فقط فكرت أني منحوس: مهما أفعل، تنتهي الأمور نهاية سيئة. مع ذلك فقد كنت قد أخذت حذري ألا أكرر نفس خطأ العام الماضي: لقد توقفت عن اللعب لأستمع لما يريدون أن يقولوه لي. لقد فعلت كل شيء بدقة حتى لا أقع في نفس الموقف. بلا فائدة. ما العيب الذي يعتورني؟ألا يمكن أن يتبدل شيء؟ دون أن نأخذ في الاعتبار أني للمرة الثانية أبقى على جهل بما هو شديد الأهمية فيما يرغبون في قوله لي.

ذات مساء يطفئ والدانا الضوء في غرفتنا، حين يتدلى شقيقي من سريره ويدعوني في الظلام: "جريجوار، لدي سر أقوله لك". أتسلق في الحال السلم الذي يربط سريرينا الذي يعلو أحدهما الآخر وأصعد إليه في سريره. أنتظر أن يكلمني. ولكن بدلًا من ذلك، بدا في مداعبتي في الظلام وفي تقبيلي. لم أفهم ماذا يصنع. انسحبت يده على عضوي. وقادت يده الأخرى يدي نحو بطنه. شعرت بزغب وبأصابعه تعمل. لا أتحرك. أخي يتنفس بقوة. وعندما انتهي هبطت لأرقد ونمت.

منذ هذا اليوم لا أتذكر أننا تبادلنا الكلام كشقيقين.

كانت أمي تفضلني دائمًا على أخي. وقد رفضت الاعتراف بذلك لفترة طويلة، لكننا كنا جميعًا نعرف، وهو ما سبب مشاكل لكل واحد منا، وإن كان لأسباب مختلفة. ذات يوم كنا نلعب أنا وأخي في الشرفة، وسمعته أمي يقول لي "أنت لا تستطيع أن تقفز". فجاءت أمي مندفعة في الحال.

وفي نفس الشرفة صدم أخي أنفه مرة بعنف في حاجز الشرفة، فخرج منها بورم ضخم ابتلع أنفه وعينيه. في اليوم التالي تم استدعاء والدي عبر مدير المدرسة. لقد ادعى أخي أن أبانا قد لكمه.

وفي المراهقة سيخترع أخي لعبة. سيتسحب بصمت خلف أمي ويظل دون نفس أو حركة في ظهرها بينما هي منهمكة في غسل الخضروات في الحوض، على سبيل المثال، وعندما تلتفت، تطلق في كل مرة صرخة كبيرة وتقفز وتضع يدها على قلبها. أحيانًا ينتظرها أخي خلف أحد الأبواب. يتحرك داخل المنزل دون أن يثير أدنى صوت. كهندي أو شبح. هذه اللعبة الصغيرة تستمر لشهور. أمي لم تعد تفعل شيئًا دون أن تكون متأهبة، شاكة أن ابنها سيظهر فجأة أمامها كشكوى صامتة. كحاجة لم تلب.

في ذات عيد ميلاد، وبينما يفتح جميع أفراد العائلة هداياهم، سيجمع أخي هداياه في ركن ويقول: "سأفتحها غدًا". ثم يذهب للنوم.

أرسل أخي إلى الولايات المتحدة فهدذا بالرسوب للمرة الثانية على التوالي. ولحزنه في البيت قرر أبواي أنه من الأفضل أن يغير جوًا،بالفعل كان أخي يختنق في فرنسا، لكن هو وحده من كان يعرف لماذا. عاش سنة مع أسرة في تكساس، حيث عاد من هناك بشعر مصبوغ بالأوكسيد. في لحظة تجميع النقود اللازمة لسفره، قال لي أبواي إن الأمر يتعلق بتضحية لا بد أن نقوم بها جميعًا.

كانت عودته إلينا فاجعة. شهور بكاملها يظل ممدًا على سريره، وذراعاه بجانبه متصلبًا بلا حراك. لا يتكلم ولا يفعل شيئًا، فقط يحدق في السقف. كان في وضع أفقي ذلك الشبح الذي كان قبلها بعام يقف بمكر في ظهر أمي ، ولكن دون أن ينتظر منها شيئًا. تركته على هذا الوضع في المساء ووجدته عليه حين عدت من المدرسة. وقد أرهق والدانا من تفاعله كحائط. وفي المساء، اختفى أخي ليقابل كاتبًا كان يقوم بتربيته الجنسية لا الأدبية. لم يكن يقرأ أبدًا على كل حال. أبواي كانا يلتهمان سلاسل

الرواية السوداء.

لم تكن عند أخي سوى رغبة وحيدة: العودة إلى الولايات المتحدة. قام بتقديم خدمته العسكرية ، ثم عمل كبائع في مطار رواسي، كي يشتري تذكرة الطيران. لقلة نقوده اجتاز الولايات المتحدة بالدعارة. "من الجنون أن تعرف عدد آباء الأسر من المثليين" أسز لي مرة عندما ذهبت بعد سنوات لأزوره عبر الأطلسي.

واستقر أخيرًا في سان فرانسيسكو ولم يعد إلى فرنسا بعدها، منقطعًا عن إرسال أخباره تقريبا لمدة عشر سنوات. في الفترة الأولى كانت أمي تستعلم بشكل محموم لتعرف هل ابنها مثلي جنسيًا أم لا. وهو ما كان يزعجها هي وأبي. "لقد كنت متأكدة. منذ كان صغيرًا جدًا وهو يفضل الأولاد". صاحت بعد أن أجبرت أفضل أصدقاء أخي على أن يكشف لها الحقيقة.

إذا كان قد استطاع أن يعيش مثليته في سان فرانسيسكو دون عوائق، فقد ظل على هامش المجتمع المثلي، الذي كان في إطاره نموذجًا للمحزن. "أنا شخص غيري مقموع" كان قد كتب فوق سريره.

كان بائعًا للأسطوانات المدمجة في النهار، ومشغلًا للأسطوانات (دي جي) في المساء. كان يبدو كمراهق أبدي. مستثار بكل المعاني، ويضحك بقوة كما لو كان يمثل في كوميديا دائمة. لم يكن في الثلاثين، ولكن في العشرين زائد عشرة: بعد حياة أولى بالفرنسية عاش حياة ثانية بالإنجليزية، وهاتان الكينونتان لم تلتقيا أبدًا في نفسه، بل كانتا منفصلتين الواحدة عن الأخرى. لو كان يسعى للعثور على ذاته، فلدي شعور بأن نصف ذاته هي ما صلح بديلًا عن ذاته الكاملة، وطريقته في الحل لم تقنعني.

أسمع دائمًا صوته يصرح لي: "عندما علمت بأني مصاب بالإيدز شفيت". ولكن لم يقل لي من ماذا.

قبل أن يموت جاء إلى فرنسا ليودع كل أفراد العائلة. على الرغم من المحيط الذي وضعه بينه وبين العائلة، فهو يبدو أكثر ارتباطًا مني. كانت حالته يائسة، واعتنى به أبي وأمي، في يوم طلب منهم أن يسامحوه. وهنا أيضًا دون أن يحدد. ثم غادر مرة أخرى إلى الولايات المتحدة حيث ساعده عشيقه حتى النهاية.

قبل رحيله بليلة، هاتفته. وكان عيد ميلاده في اليوم التالي. أتذكر

أني قد فكرت أنه لو تجاوز تاريخ ميلاده سيقدم تاريخ وفاته عامًا. يكفي أن تكون لديه أربع وعشون ساعة ليكمل دورة إضافية في الوجود، حتى المرة القادمة. لأنه توجد تلك الغريزة أن نخرج من حيث جئنا. أن نستعير نفس الشق في الزمن الذي استطاعت الروح -لكي نتكلم بشكل أكثر عمومية- أن تتجسد عبره في جسد. مات لودفيج فيتجنشتاين يوم ٢٩ أبريل، هو من ولد يوم ٢٦ أبريل، بينما مات توماس بيرنارد قبل يومين من احتفاله بعيد ميلاده الثامن والخمسين، والذي كان فوق ذلك ذكرى وفاة جده الذي كان يعشقه، والنهر الذي ألقى ازامو دازاي نفسه فيه قد أعاد جثمانه في يوم عيد ميلاده التاسع والثلاثين، وكثيرون غيرهم، مشهورون ومجهولون، ممن حاولوا إغلاق القوس في المكان الذي انفتح عنده. أخي لم تكن له القوة ليعبر للمرة الثالثة والثلاثين من نقطة الانطلاق: لقد مات في الليل.

قبل أن ينهي المكالمة، قلت له إني أحبه. لم أكن أفكر في كلمة كهذه. ولا بهذه الطريقة على كل حال. كان ذلك لأسعده. كان لدي الانطباع أنه راغب في أن أدلي له بتصريح من هذا النوع. ودار كل شيء بيننا كأننا نلعب المشهد النهائي في فيلم، ربما لأن ذلك يجعل نهاية حياته غير واقعية وفي اللحظة المناسبة. ولكن بقولي هذا جاءني شعور مقبض أني أتلو حكمًا عليه وأتعجل نهايته. وبإقراري هذا كنت أودعه، أصرح له بالمغادرة، أحثه عليها ربما. طوال حياته لم أقم نحوه بأي تصريح مماثل. بعد أن أنهينا المكالمة، بقيت لدقائق عديدة أتأمل التليفون. كنت أعرف أني أسمع صوته للمرة الأخيرة. وفي اليوم التالي كان قد مات.

إنه الشتاء، مساءً نعود ذات يوم أنا وأخي من المدرسة بعد الدراسة. الشقة بشكل غريب غارقة في العتمة. أمي تبكي في الصالون. وإذ تسمعنا تضيء المصباح الصغير فوق المدفأة. هي تجلس على المقعد الكبير من طراز هنري الثاني. عيناها محمرتان ومنتفختان. ننظر لها دون أن ننبس بكلمة. فقالت متنهدة: "يا أطفال لقد رحل أبوكما. يريد أن نتطلق. مع من تريدان أن تذهبا؟" بقيت كالأبله. أرى أخي يهرع نحو أمي، ويحتضنها بين ذراعيه، ويقبلها في كل مكان، كما لو كان قد انتظر هذه اللحظة طويلًا، ويصيبني تأهبه بالاشمئزاز. وتنهمر دموع أمي، وتستكين هي أيضًا تجاهه، ويبقيان متشابكين كما لو كانا قد ذابا في بعضهما.

لا أتحرك، مزروعًا في منتصف الصالون. وبجوار قدمي تقف حقيبتي المدرسية بمفردها. أنظر نحو المدخل. وأحدق في الستارة المخملية

الخضراء التي تحجب الباب كما لو كنت أنتظر منها رد فعل لا يأتي. لقد كانت هي آخر من رأى أبي، وكان لدي الانطباع بأنه يكفي أن أزيحها لأرى أبي يظهر أمامي. هو لم يتخل عني. هذا ليس معقولاً. ماذا أفعل؟ أريد أن أذهب معه. لكنها لن تحتمل ذلك. سترمي بنفسها من النافذة ثانيةً، أو لا أعرف ماذا إذا استجبت بشكل سيء. لا أريد أن تقتل نفسها بسببي. لن يكون هناك أحد ليلحق بها الآن.

أكرهها لأنها طرحت علينا هذا السؤال. لا يحق لها. أرفض. هذه هي الأفكار الوحيدة التي تعبر برأسي. لكني أخفض رأسي وأسمعني أهمس بصوت خفيض: "معك يا ماما". أسمع حينها بوضوح صوت قماشة تتمزق، صوت متنافر بشكل كامل. ما هذا؟ أدير رأسي. لكن الصوت يأتي مني أنا. نعم إنه فيّ. بداخلي. قماشة تتمزق داخل جسدي. أستطيع تمييز الصوت بوضوح. وقوي بما يكفي. إنها قماشة. شيء داخلي يتمزق كنسيج. يمكن أن يكون الصوت قادمًا من بطني أو صدري. لم يكن لدي الوقت لأعرف لأنه انتهى بالفعل. ثانيتان أو ثلاث على الأكثر. كان هناك إذن نسيج بداخلي؟ أمي تمسح دموعها. تقول: "أشكركما يا طفلي. أنتما لطيفان". أكره نفسي.

حتى اليوم لا أعرف شيئا قابلًا للتمزق كالنسيج.

ذات يوم رأت ابنتي صورة لي مع أمها أيام كنا مغا، فكانت لها تلك النظرة الصامتة، المهمومة لهؤلاء الذين يعرفون أن سعادتهم، مهما فعلوا، ستستند على حزن لا ينتهي لهم حتى، وقد أصابهم بشكل ظالم ومفاجئ. كنت مستعدًا لبذل أي شيء في سبيل ألا أرى هذه النظرة في عيني طفلتي، ولأنني أجبرت على ذلك، فقد كدت أقتل أمها. وهي لم تشك في ذلك حتى. وفي الحقيقة، فقد حلمت أن أمها تترك أباها.

عندما قبضتُ أول راتب لي وأنا في السادسة عشرة، اشتريت مسجلًا رباعي الأوجه من طراز آكاي، ليوم كامل أرى نفسي منهمكًا في تسجيل صوت نسيج يتمزق وصوت باب يغلق. وقد جاءتني الفكرة دون أن أعرف كيف. ولم أطرح على نفسي السؤال. أرغب فقط في أن أصنع موسيقى وأنا لا أجيد العزف على أي آلة، فأصنعها بما هو تحت يدي.

لكن المسجل لا يصلح لاسترداد الأصوات التي في رأسي. إنه ليس نسيجي ما يتقطع، ولا بابي الذي يصفع. لقد دفعت الباب بلا روية أو بشكل جاف، وقطعت النسيج بضربة سريعة أو ببطء شديد، الأصوات التي

تأتيني عبر الشريط تظل تقريبية. وظللت مع ذلك متعلقًا بحيل الجهاز، بالانطباع أني أتطور في زمن آخر. إنها خبرة غير مسبوقة. ولمرة وحيدة لم تكن المشكلة في أنا، ولكن في الميكروفون.

وفي النهاية، أحصل على تسجيل مذهل. إنها أفضل قطعة موسيقية سجلتها، بما أني وضعت فيها نفسي. صفعات الباب شكلت الإيقاع وصوت تمزق النسيج شكل النغم. كما لو كانت ضربات جيتار كهربائي. وأحيانًاأرغون كاتدرائية. المقطوعة طولها دقائق ثمانية. أضع لها عنوانًا"في نسيج جيد". ينبعث منها نوع من الهارموني اللاذع والمتكرر يهزني. وبها شيء أفريقي ومستقبلي في نفس الوقت، مع مقطع في المنتصف يمدد الوقت حتى الصمت. يجب أن أسمعها ملايين المرات. لم أسمع أبدًا شيئًا كهذا. هذا شيء اخترعته أنا. أسمعها لأصدقائي. يجدونها سخيفة. يرغبون في الاستماع لأحدث أغاني الرولينج ستونز. ويفضلون تشغيل موسيقى مارسيل دادي وتدخين السجائر الملفوفة.

بعدها بعام، عاد أبي إلى البيت. لا أعرف كيف يمكن هذا: فجأة هو هنا. لكن هذا ليس هو. إنه رجل آخر له لحية. لم يكن لأبي لحية أبدًا. إنه واحد ينتحل شخصيته. لم يعد لي أب منذ عام. ولم أعد أريد. لقد غادر أبي منذ عام. لقد قالتها أمي. كانت ستقول لنا لو كان قد عاد. كنا سنعرف. لا نعود عندما نغادر. كل هذا الألم من أجل لا شيء. سيكون ذلك مضحكًا.

في ذلك الصيف، أقرأ لدى جدي "كنز راكهام الأحمر"، في هذا المجلد من "مغامرات تان" يظهر البروفيسور " تورنسول". يجيء ويدق الباب على تان تان ليعرض عليه غواصة من اختراعه. سأصاب بالصدمة وأنا أقرأ هذه الصفحة. هذا الرجل الملتح القصير والذي يعتمر قبعة ومرتديًا النظارات الذي يظهر عند الباب مرتديًاحلة من الجبردين الأخضر ساقطةً حتى قدميه، نعم، جاءني حدس مباشرة: إنه متنكر. إنه ليس ما يدعي.

أكد هيرجيه دائمًا أنه استوحى شخصية تورنسول من الفيزيائي السويسري أوجست بيكار، الذي تثبت الصور إنه يتشابه فعليا مع شخصية هيرجيه نفسه، ولكن دون لحية! في الحقيقة لو خلصنا تورنسول من كل ما يخفيه (ومن كلام هيرجيه نفسه)سنجد وجه راكهام الأحمر القرصان الرهيب الذي يقال إنه اختفى منذ ثلاثة قرون في انفجار سفينته "وحيد القرن". بإمكاننا التأكد: لحيته المدببة تخونه. تورنسول في الحقيقة شبح. ولو كان أطرش فذلك لأن أذنيه لم تحتملا انفجار "وحيد القرن"، وصار

اسمه من وقتها تورنسول "عباد الشمس"، وهو ما يقول الكثير عن شكل عودته، ويقترح غواصة على شكل سمكة قرش كي لا نقول راكهام[10] . بعد ثلاثة قرون يعود القرصان لكنه متنكر. إنه هو، كما أن أبي هو أبي أيضا بعد اثني عشر شهرا من الغياب. غير أن القرصان القاسي كان قد تحوّل إلى بروفيسور مسالم، وفي ذلك الصيف، لم أكف عن التساؤل عما يمكن أن يكون قد جرى بين القصتين، كي يظهر لي أبي، ذلك الشبح منغيزا إلى هذه الدرجةوغير قابل للتعرف عليه.

وعندما أعلنت ذلك الاكتشاف لأمي ذات يوم، نظرت لي بذهول . "لكن أبوك كانت له لحية قبل هذه القصة" قالت معترضة "لقد أجبرته على إطلاقها بعد زواجنا مباشرة، لقد كان قبيحا بذقنه العارية. إن ذاكرتك تخونك يا بني". ارتبكت في الحال. كنت مقتنعا أن ذاكرتي لا يمكن أن تكذب أو تخترع أي شيء. ليست لي.هي فقط تشهد على ما جرى، وها هي تخونني بدورها. ككل شيء.

كان اسمها إيف[11]- ولكل أساطيره- ومن أجلها ترك أبي البيت. كان قد أصبح رئيس قسم الأغذية في أحد متاجر "مونوبري"، وبدأ يكسب النقود لأول مرة في حياته، وظن دون شك حينها أنه يستطيع أن يقع في الغرام. لأنه عاش عشقا باهظا مبددا كل نقوده بطيش على الهدايا لإيف. ومبددا حتى تلك النقود التي لا يمتلكها: بدأت الفواتير تصل إلى أمي. ثم تجار مجوهرات يقدمون شكاوى عن شيكات دون رصيد، كانت بنقود كثيرة نسبيا مقارنة بما يكسبه أبواي. ومضى الأمر أبعد من ذلك حتى بات أبي مهددا بالسجن. ووجدت إيف اللحظة القانونية مناسبة لتتبين أنها لم تعد تحب أبي. فعاد إلى رحاب زوجته وأطفاله.

ووكلت أمي محاميا ونظمت جيدا الدفاع عن أبي، كي يتجنب السجن. وقد زصد في البنك المركزي وظل لعشر سنوات ممنوعا من التعاملات البنكية. وكان لا بد له أن يسدد ما أنفقه بكرم الزاني، وهو ما استغرق عدة سنوات.

لو كانت أمي قد قبلت عودة زوجها، فهي لم تتسامح مع قوله لها إنه يستطيع أن ينجب من أي واحدة، ورفضت أن يلمسها من وقتها.

وبدأت إذن خلافات لم تنته. لم تتوقف أمي عن استفزاز أبي، كانت تعرف كيف تعذبه، وهو دائما ما كان ينفجر في النهاية. وفي أثناء لعبة "بنك السعادة"أغضبته لدرجة أنه قذفها في وجهها بمطفأة سجائر

زجاجية، لامست المطفأة رأس أمي وطارت خلفها،فتحطمت النافذة الزجاجية الكبيرة للصالون. ماذا لو كانت قد أصابتها؟"أراجوز مسكين" أطلقتها أمي فقط، باحتقار.

عندما كنا نشاهد التيلفزيون، كان جو الغرفة يتصلّب ما إن يُقبل اثنان بعضهما على الشاشة.

كي أنام كنت أسد أذني كي لا أسمعهما.

ولم تعد هناك سهرات من التي يرقص بها الأصدقاء ويضحكون، لقد تباعدوا الواحد بعد الآخر.

وفي هذا المناخ الدافئ، قضيت مراهقتي. في كل لحظة تتصدر الصالون كرة من العنف، ينبغي الالتصاق بالجدران لتجنب المخاطرة بلمسها فتنفجر.

في كل صباح أكون سعيدًا بذهابي إلى المدرسة. وعند الخروج من الحصص آخذ عادة في التلكؤ في الشوارع. أسرق من المحلات. ثم أتخلّص من المسروقات في المزراب. أخدش أيضًا أبواب السيارات في موقف جادة مارسو. وأخبط زجاجها بإسقاط جوزة كستناء فوقها بكل بساطة . تأتي أمي لتأخذني في بعض المرات من قسم الشرطة. لا تعنفني أبدًا أمام رجال الشرطة.

وفي مساء، أعود مرة أخرى متأخرًا على العشاء، من على السلم أسمع أبواي يتشاجران. أدق الجرس دون أمل، يفتح لي أبي ويعطيني قبضته في وجهي: "متى تكف عن جعل أمك قلقة عليك!" أقوم وأدخل غرفتي.تجيء أمي لتراني بعد وقت: "أبوك لم يكن يريد أن يؤذيك. إنه مستاء جدًاالآن. يجب أن تذهب وتقبله".

كان ينبغي أن يُكتشف أن لدى أبي -وهو في الأربعين- سرطانًا في الخصية، بعد عام من إصابته بالتهاب الصفاق الحاد، حتى تلين أمي. إن خوفها من أن يموت الرجل الذي أحبته وهي في السادسة عشرة جعلها أخيرًا رحيمةً. إن زائدة دودية وخصية ناقصة بديا لها عقابًا كافيًا. عولج أبي بالإشعاع. تقريبًا على جسمه كله ظهرت موشومةً بقع زرقاء صغيرة.

في مرحاض بيت شارع ماربوف، علّق أبواي منذ وصولنا سلسلة من الصور، تمثل الخطايا السبع الكبيرة. كانت عبارة عن رسوم ملونة كبيرة على ورق مصقول. كل خطيئة كانت ممثلة بشكل مفاهيمي، كما لو كنا

بصدد إعلان عن السرقة أو القتل. على مر السنين سقطت الصور من على الحائط واختفت واحدةً تلو الأخرى، باستثناء اثنتين قاومتا -لا أعرف لكم من الوقت- كل شيء، يعتاد وتمرد: الإهمال (رجل بقبعة من القش ممد في الشمس) والغضب (نافذة زجاجية مهشمة على خلفية حمراء دموية). يحدث لي أن أفكر أنها لم تكن مصادفة.

وأنا جالس على المرحاض، أفعل أي شيء كي لا أحدث صوتًا يمكن أن يُسمع عبر الباب يفضحني في آذان العالم. أسعل في لحظة الإسقاط الشهيرة. وذات وقت، أحلم بخلق ملجأ في الأركان الصغيرة، وأرى نفسي أعيش في الملجأ لا أخرج منه أبدًا، بما أني أستطيع أن أقضي حاجتي به. ذلك الحس العملي أسعدني. ومن نافذة على شكل كوة، يدخل لي الطعام بواسطة حبل.

ذات يوم استغليت أن أبوي قد خرجا، كي أشاهد في السر التليفزيون في غرفتهما . متمنيًا أن أفاجأ بشيء محظور ومثير مما كان يحمل علامة مربع أبيض في ذلك الوقت. لكنني أقع على ماكس متنكرًا في زي موسيقي غير أنه فطلقًا جدائل، ويده العجينية قد تحولت إلى ألف أصبع تلهو على ذراع جيتار كهربي. في لحظة قال: "عندما كنت طفلًا، في كل مرة كنت أقابل فتاة، لا يحدث هذا أبدًا مثلما يحدث في الأغاني. لم أكتب أبدًا أغنية حب. لا يجب أبدًا أن نكذب على الأطفال".

بعد ذلك بسنوات، سأعرف أن الأمر كان متعلقًا بفرانك زابا. بين كل الرموز التي كانت معروضة في سوق الشباب، لكي يستنفد ويهرم في أسرع وقت، كان هو الوحيد الذي أعجبت به لرفضه أن يكون رمزًا، وأيضًا لكونه أكثر موهبةً من معظمهم. لقد كان الروح التي تضحك، كما كان لوتريامون أول من كشف لي الشعر. كان اسم فريقه في الأصل "ناكحو الأمهات". كيف استطاع أن يعرفني؟

لا يوجد غيره استطاع أن يركب مقطوعة على نوتة وحيدة . كما نقوم بتمريرة على قدم واحدة في لعبة الرجبي لنحدث نقلة انتصار في خط الهجوم. معه كانت الحدود تخلع نياتها المؤلمة بفصل الأشياء والكائنات. الحرية، والفرح، والابتكار: كل ما كان ينقص حياتي كنت أستطيع أن أسمعه في موسيقاه. كنت أرغب في الحياة في عالم مماثل يعطي ترياقًا للوجود، لكنني سئمت من عدم العثور عليه سوى بحزوز الأسطوانات.

في سن التاسعة. أنا في البهو الأمامي الواسع لشقة آل فينويك، وأنا وماري بلانش علينا أن نختبئ بينما فابريس يعد حتى مائة. افترقنا، وضعت في الغرف التي تفضي إلى بعضها بشكل لا نهائي، الدهاليز التي تفتح على صالون صغير، مكتب متسع، ثم من جديد صالون صغير، وكل ذلك ولم ألمح ظلًا لغرفة نوم.

الموكيت أزرق وسميك بحيث لا أسمع وقع خطواتي. هناك لوحات بكل مكان، وورود في المزهريات، نوافذ كبيرة بزجاج ملون حتى منتصفها تطل على حدائق الشانزليزيه المزدحمة. إنها متاهة رائعة بإمكانها أن تحتوي ألف شقة مثل شقة شارع ماربوف. ولكن في لحظة ينتابني القلق من الصمت السائد حولي. أرغب في العثور على الآخرين والخروج من هذه المتاهة الملبدة التي أجهل طريقة التعامل معها. لكن صار ذلك مستحيلا. أدور في دوائر وتثار أعصابي من عدم وصولي إلى أي مكان.

وعلى حافة دهليز دفعت بابًا. إنه حمام. معطيةً إياي ظهرها، كانت السيدة فينويك تغسل مؤخرتها في البيديه. إنها عارية. ياله من مشهد مذهل. لم أر في حياتي شيئًا بهذا الجمال.

ولليوم ما زلت ممتنًا أن السيدة فينويك لم تسمعني أدخل، لأنني بقيت لثوان طويلة أستطيع تأملها على راحتي. لم أفكر في الاختباء. أبقى على عتبة الحمام مذهولا من الإعجاب، فقط كان همي ألا أعكر اكتمال ذلك المشهد الذي يمكن أن يركب عليه ألف وجه، بما أنه لا يقدم لي أيًا منها. لأنه في ذاكرتي يحفر فقط مشهد ظهر يبرق، والروعة الشهباء للشعر وهو ينسدل على الكتفين، والتموج الذهبي للعمود الفقري بينما تنحني الذراعان لتختفي ما بين الفخذين، ثم خلفية الحوض التي تنقعر بينما تمر المنشفة في خط الأرداف، أنجر ودولاكروا يتوافقان فقط من أجلي في حمام.

أنا ساخن. حرارة لم أعرفها من قبل. قلبي يدق بجنون. أسمعه أيضًا يتقارب. لكنها خطوات في الردهة! وعندما التفت، تنتصب أمامي جدة فابريس. ترمقني بنظرة ترى كل شيء في طريقها قذرًا. في عينيها ألمح خطأ تسكبه في نظرتي، تجعله لي، وفجأة أصير أقل من دودة، إدانتي بلا استئناف. كل شيء يشهد ضدي. أهرب راكضًا، متبوعًا بالنظرة الخسيسة، كما لو كانت السرعة يمكن أن تبددها.

عندما أجد فابريس، لا أجرؤ أن أحكي له ما يدور. فالأمر يتعلق بأمه

في النهاية. أنا في حالة من العصبية الشديدة. لا بد أن السيدة فينويك قد علمت أي فاسق صغير أكون. أرغب لو لم أولد أبدا. كنت أيضا مرتعبا من فكرة رؤية الساحرة البشعة التي أتلفت كل شيء. مرة أخرى كل شيء يتلف. يتلف في اللحظة الأخيرة. في أفضل لحظة.

التحقت بنا ماري بلانش،فأشعر فجأة أني غريب في حضورها. لكن ليس لدي الوقت لأفكر في ذلك. ولا في المثلث الذي تكونه السيدة والفتاة والعجوز، وحيث في تفكيري، كانت الهندسة قد بدأت تنسج شبكة مخيلتي. أقترح باستعجال أن نذهب جميعا لنلعب في حدائق الشانزليزيه. كان على فابريس أن يطلب الإذن من أمه. وتصل تلك إلى الصالون الكبير. أتضاءل في أحد الأركان.

إنها رائعة، بهيئة سأتعلم في أحد الأيام أنها لا تنتمي إلا للنساء وهن هانئات، ولم يضطررن أبدا في حياتهن لغسل الصحون. فقط البرجوازية المستنيرة تنتج أحيانا مثل تلك العينات الرائعة، التي تصنع جدارتها الفريدة وأيضا الفحيطة.

ترتدي السيدة فينويك قميصا حريريا. ومن شفافيته نرى نهديها، وقد فوجئت لرؤيتهما في الركن. أنا لم أعد أنا بلا ريب. أشعر بالخجل، لكن كل شيء مكثف. ويظل لي ذوق مبالغ فيه في القمصان النسائية و"التقاوير"، أيا كانت المرأة.

اقتربت منا السيدة فينويك وسألها فابريس إذا كان بإمكاننا الخروج. وبينما هو يتكلم، جرؤت أن أرفع عيني نحوها. وأنا مذعن مقدما للمحتوم. ولكن من فوق كتف فابريس استهدفتني السيدة فينويك بابتسامة، لم تكن موجهةً سوى لي، وأنقذتني مدى الحياة. ابتسامة جنية طيبة. ما أدين به لهذه الابتسامة لا يقاس. تقول لي إني لست مذنبا، لم يُفقد شيء أبدا، الجمال مصدر للطيبة، الوجود كنعيم، ما هو غير متوقع هو الاستحسان الوحيد في الحياة، وأشياء أخرى كثيرة، ليس لدى السيدة فينويك أي فكرة عنها، ولكنها تفند المصير الذي كانت أسرتي والمجتمع قد ادخراه لي بالفعل. تمنيت لو أن كل الناس تقابل السيدة فينويك في يوم من الأيام، خصوصا لأنها اقترحت أن أبقى للغداء، وأن أذهب معهم إلى لعبة جولف،ستأخذنا جميعا إلى خارج باريس طيلة ما بعد الظهيرة. أنا أجهل ما هو الجولف، لكن لا بد أن يكون شيئا إلهيا. لم أكن أبدا سعيدا هكذا.

على الهاتف، لم يكن الأمر صعبا لإقناع أمي بهذه الرحلة المرتجلة في

يوم أحد. وبين خمائل حدائق الشانزيليزيه، حيث ذهبنا لنلعب أنا وفابريس وماري بلانش. أتقافز في كل مكان كجدي، وتبدو لي قواي غير محدودة، بإمكاني أن أقفز من فوق المدينة بأسرها.

عندما صعدنا إلى شقة شارع جابرييل، كانت السيدة فينويك تجلس على أحد "الفوتيهات" الكبيرة في الصالون. إنها تبكي. أمها واقفة بجوارها تربت كتفها لكن دون اقتناع، كما لو كانت كل مواساة بلا فائدة. لا أفهم. لدي شعور بأني عشت هذا المشهد من قبل، ولكن في اللحظة لا أعرف أين. ما الذي حدث؟ منذ قليل كانت تبتسم والآن... أدرك انقلاب الموقف، ولكن لا أتوصل لإضفاء معنى عليه.

انتهى الحفل؟ مرة أخرى أقف على العتبة، دائمًا على العتبة، أكان صالونًا أم حمامًا، وكما لو كنت أمام شاشة، يبدو لي المشهد في الساعة الحادية عشرة، شمالًا عبر الشمال الغربي كي أكون دقيقًا. ومنذ لحظتها لم أكف عن السير في هذا الاتجاه: الشمال عبر الشمال الغربي، كما لو لم يكن هناك اتجاه آخر لي، كي أعبر العتبة في النهاية، وأتجاوز الصورة، وأصل للسيدة فينويك، وأنقذها، نعم، بشكل عفوي تسحبني خطواتي نحو هذا الاتجاه، حتى وأنا أشتري الخبز، فأنا أفضل المخبز الذي يقع في الزاوية الشمالية الغربية في حينا، إن خبزه دائمًا ناضج بزيادة.

انتهى الحفل. كنت أرغب لو أمسح دموع السيدة فينويك. أفعل أي شيء. أي شيء كان. أن أمسح هذه اللوحة الرديئة التي طمست لوحة بوشيه الخليعة التي كانت بالحمام. أعتقد أن فنانًا ما قد تلاشى بينما نحن نلعب في الخارج. لا أفهم. ليس لدي سوى هذين المشهدين لأتعلق بهما، وهما لا يتوصلان للتقارب، بل يتناقضان ويفتحان بينهما هوة. أبحث عن خيط بينهما، أعيد تشكيل الزمن على قدر استطاعتي، كل الصور الناقصة التي تصل بين الحمام والصالون، من الفرح للدموع. بلا فائدة. أبقى كالمخدر، فارغًا من الحياة، لا أشعر بأي شيء، لا شعور ولا إحساس، فقط حاجة مدوخة للعدم، تغزوني من خلف عيني، سبات بلا اسم وبلا حرارة أذوب في كثافته، ويتركني في مكاني تمثالًا من حجر منتصبًا على الرغم من كل شيء عند المدخل.

انتهى الحفل. وهو اليقين الوحيد الذي لدي. اقتربت العجوز فينويك لتمنعنا من الدخول إلى الغرفة. وخلفها ابنتها تدير رأسها لتخفي وجهها عنا. تظل منحنية، ذلك ما هو أكثر من الأسى، كأنها لم تعد تستطيع

النهوض، كأن وجودها قد انهار في قدميها ولن يرى النور أبدا بعد ذلك.

تبدو الغرفة كلها غارقة في وحشة نهائية. الضوء الذي لا يزال مشغا كئيب. تقول لي العجوز فينويك إنني يجب أن أعود إلى بيتنا. لا تتكلم عن الجولف. لا أطرح أسئلة. لا أعترض. اعتدت على تبدد السحر. بدأ يدخلني علم الحياة. رغما عني. أي عنف: بالكاد كان لدي الوقت أن أودع فابريس وماري بلانش فقد أغلق دوني الباب بالفعل. خارج الشقة، على بسطة السلم كانت حياتي لم تعد تساوي شيئا.

أجهل في تلك اللحظة أني أرى آل فينويك للمرة الأخيرة. وأنه لن تأتي لي الفرصة بعدها للعودة إلى جادة "جابرييل"، هذا المكان الذي تسقى بالاسم الدقيق حيث تلقيت العديد من البشارات.

في اللحظة التي تلت ذلك، كنت أمشي نحو صينية شارع الشانزليزيه. زحام كبير يعطل المرور. عجبا، فالليل قد هبط تقريبا. أناس يهتفون بأشياء لا أفهمها. بعضهم يرفع لافتات، وأحيانا أعلاما سوداء أو حمراء. والبعض وجوههم ملثمة بمناديل أو كوفيات. الجلبة في كل مكان. أرى بعضهم يطلق قذائف نحو هدف لا أعرفه. وصرخات فرح تطيل سقوطها. تدافع في كل الاتجاهات. صدامات. زئير. فتاة تُصاب في وجهها. تستمر في الركض على أربع.

لا أفهم شيئا. كما لو كان العالم قد تغير برمته ذات ما بعد ظهيرة. كل شيء يجري بسرعة. يزدحم. يتعاظم. أشعر أني أتضاءل. حدث يطارد الآخر، دون رابط ظاهر بينها، ولا معنى أستطيع إدراكه. لكني أعرف أن حكايتي تضطرب. العالم عمره ليس تسع سنين كما كنت أظنه: أنا في عام ١٩٦٩ ولا أحتل مركز أي شيء. أنا لا شيء. أنا وحدي. والكون لا ينتمي لي. يوجد عالم للبالغين. وهو ليس عالم الكبار الذين أعرفهم. كما لو كان هناك تغير في المقاييس ليس في صالحي. أشعر بأني غير مرتبط بأي شيء. لقد قطعت الجسور. غريب أنا. غير لائق. حر وغير ذي جدوى.

في منتصف الشارع، علي أنا أكافح كي لا أداس بالأقدام. كنت أرغب في العودة إلى بيتنا. ولكن الحركات العنيفة للزحام تجبرني على التراجع مع الآخرين. أركض دون أن أعرف لماذا. أنا خائف. لا أسمع سوى الأنفاس القصيرة للناس الراكضين بجواري. إنهحيوان ضخم يتنفس. أتسلل ما استطعت ذلك بين الظلال. ذلك مثير أيضا. أتقدم مرة أخرى نحو الأمام، الشمال عن طريق الشمال الغربي.

وعندما شعرت أني رفعت عن الأرض: رأيت شرطي مكافحة الشغب من خلف خوذته، يصرخ في سائلًا ما الذي أفعله هنا. لوح بهراوته فوق رأسي. فررت بأقصى سرعة. جادة مونتاني خالية. لم أسترد أنفاسي إلا بوصولي لشارع ماربوف.

قلت لأبي الذي فتح لي الباب بالبيجاما فقط، إن مباراة الجولف قد تم الغاؤها في اللحظة الأخيرة. فعاد إلى قيلولته جوار أمي.

أقضي بقية النهار في غرفتي، أحبس كل دقيقة من هذا النهار العجيب عميقًا داخلي، ذلك النهار الذي جعلني أكبر ألفي عام، وكشف لي الاتساع اليانع للحياة. للمرة الأولى أدري أن لي حياة تخصني. لقد ولدتني الأحداث عشر مرات، وأشعر أني ثري بوجود لا يدين بشيء لأي شخص.

في المساء العائلة كلها موجودة لتناول الطعام على صينيات أمام التليفزيون، نشاهد فيلم مساء الأحد. الأمور تجري كأن شيئًا لم يحدث، كأني على ما كنت عليه دائمًا. مع ذلك، فالأحداث اليومية من المفترض أن تكون قد كُسرت إلى نصفين. كيف تظل الجدران والأطباق ومفارش الأسرة في أماكنها؟ لا أحد يرى أن لا شيء يمكن له أن يظل على ما كان عليه؟ فقد عشت مع ذلك حياة كاملةً في ذات ظهيرة، ومن المستحيل أن يمر هذا دون أن يكون ملحوظًا. لا بد أنه ترك علامةً ما على وجهي، تجعيدةً، ما لا أدري، أو شذرة كونية في نظرتي. ولكن لا.يمد لي أبي قطعةً من الخبز. أمي تمسح شفتيها قبل أن تشرب جرعة من النبيذ الأحمر. أرى كل حركة فتبدو لي هائلةً. تكراراتهم القبيحة تقفز لعيني للمرة الأولى.

أرتعد فوق مقعدي. لم أعد أستطيع رؤيتهم. هذا كمين. كل هذا مزيف. كذبة هذيانية. لقد رأيت. لم أكن أحلم. أعرف. السيدة فينويك وكل الباقي. يوجد بُعد آخر. زمن حي. ريح. سحر لا أستطيع أن أنساه. هو ذا: سحر. لا يجب أن أنساه. أبدًا. في نفس الوقت لا أقول شيئًا. لا أستطيع. لقد تنازلت منذ وقت طويل عن إسماع صوتي لأحد. بدايةً ليس لدي كلمات كي أحكي. بقيت صامتًا، عيناي مسلّطتان على الشاشة الصغيرة كي لا أرى أو أسمع شيئًا. أتعلق بالصور لأسباب لا تخصها، ودونها لم يكن ليتحقق أي نجاح.

عندما فجأة تعرض آخر الأنباء ناصية الشانزليزيه المكتظة بالبشر: مظاهرة ضد شخص يُدعى فرانكو أمام سفارة إسبانيا. كان الناس يحتجّون على إعدام أحد المحكومين، من المفروض أن ينفذ في الفجر،

أحسست فجأة أن شعوري بالوحدة يتناقص.

ثم كانت قضية عن أكبر شحنة مخدرات تضبط في فرنسا: في حادث بالشانزليزيه المختنق، بسبب المظاهرة، اكتشفت الشرطة عن طريق المصادفة في صندوق سيارة، عدة كيلوجرامات من الهيروين. تم القبض على السائق، كان متوجهًا إلى شارع جابرييل، فيما يبدو. أنا فقط خمنت.

وأيًا ما كان، فإن فابريس لم يظهر في الفصل، لا في اليوم التالي ولا فيما بعد ذلك من أيام. ويحكى أن كل عائلة فينويك قد غادرت فرنسا فجأة، لتستقر في بور أو برنس أو فور دو فرانس، لم أعد أعرف. على أطراف العالم في كل الأحوال. حيث اختفوا جميعًا: صديقي المفضل، ومحبوبة طفولتي، وأمهما الإلهة. اختفوا دون أن يتركوا عنوانًا، لا شيء، ولا أقل وداع، دون أن أعرف لماذا، بضربة واحدة، بإمكاننا إذن أن نختفي، هكذا، تتلاشى الأرض والسماء في ثانية واحدة! انتهى الحفل. عندي تسع سنوات. لماذا ما زلت هنا؟ لماذا أنا هنا؟ وما فائدتي إذا كانوا قد أخذوا معهم علّة وجودي. قطعوني عن نفسي، مهملًا ومتروكًا وأكثر يتمًا مما لو كان والداي قد ماتا. لم يعد لدي أي هدف، ويخامرني الشعور بأن الوقت قد فات، ولن يبارحني بعدها.

ومن هذا الوقت بدأت أضحك. ألم يكن كل شيء نوعًا عظيمًا من العبث؟أليست الحياة شرًا جهنميًا؟ نعتقد أننا نحياها حتى نحياها بالفعل، ونموت، ونبعث، وكنت شاهدًا على ذلك. كل شيء لم يكن سوى ضلالات، بخار، حركات. ودون أن أدري، هذا النهار المصيري سيحدد مبدأ حياتي: لن أكون منذ الآنحساشا إلا للظهور والاختفاء. عندها فقط تم شحذي، ووجدت حدودي، ودخلت العصور الوسطى. أحاسيسي أصبحت حسية. الزمن يتحرك. أنا أعيش.

من أي شيءأشكو إذن؟ أيضًا في التو طرق على بابي ظهور وفتحت له. أنا سعيد للغاية. حتى حالتي الخاصة قد كفت –وبفخر- عن تكبيلي. ماذا يمكن أن تعني في مواجهة الحقيقة التي كشفت نفسها لي منذ ذلك الأحد بعام ١٩٦٩. تقلّباتي بدت لي دائمًا مثيرة للشفقة. وبشكل أكبر لدى الآخرين، وهو ما كان نادرًا ما يتم تفسيره بشكل جيد. ذلك أن قليلين جدا هم من يشكون أن الظواهر مدهشة أكثر من الموجودات، التي هي ليست سوى صورة رمزية منها. وحقيقة أنا لم أعرف شخصًا كانت له فرصة أن يعيش في عمر تسع سنوات ظهيرة تلخص مادة مائة عام من الوجود.

سيكون لزامًا علي أن أسدد ثمن استطاعتي الاقتراب من الشعوذة الحميمة للعالم، المطلق المتأود للحياة.

وقد سذدته.

بعد ذلك بخمسة عشر عامًا، كنت أحب فتاة نزلت علي كالصاعقة بشارع بوسي، قضت علي نهائيا بجمالها وقميصها الحريري. نعم حريري، لم ألحظه حتى في وقتها. لأني كنت مأخوذًا ببقع الحبر التي كانت تلوثه بشكل فني، كأنها نوع غامض من اختبار رورشاش[12]، شذرة من الكون بالصورة السالبة.

في ثانية، كنت أنتمي جسدًا وروحًا لهذه الرؤية. بصفاء شعرت بنقرة، كما لو كانت أي روح لا أدري قد ذابت في. كان اسمها فابيان. في الليلة ذاتها سآخذها إلى بروكسل، ثم للجزر الإنجليزية بنورماندي حيث كانت تثلج. قصتنا بدأت كرحلة.

عشنا معًا أربع سنوات.

عندما قذمتها لأبوي، غمزت أمي لأبي بعد العشاء: "تعجبك، هه!"قام أبي ليأتي بالتحلية من المطبخ. لم آخذ منها.

في وقت القهوة، مدحت أمي الفتاة الشابة التي كنت قد تركتها قبلها ببعض الوقت، بعد ثلاث سنوات من العيشة المشتركة. كانت تأسف عليها. كنت أحب جاييل، كانت أول فتاة أعرفها، ولكن كان لدي عطش للهوى. كنا نعيش حياة كريهة لاثنين من البوهيميين، كانت تبدو لي مرغوبةً بعد الحياة في شارع ماربوف. ولكن مغادرة بيت والدي لم يكن كافيًا لكي أشعر بالتحرر، وكانت جاييل تناسبهم بشكل كبير،فضلًا عن أن تكون مناسبة لي. كانت قطيعتنا بطيئة ومؤلمة. كانت جاييل قد توقفت عن تعاطي المخذرات منذ تعارفنا، وقد قلت لنفسي إنه ليس من حقي أن أتركها تضيع، وقد جعلتها تعاني فوق ذلك من ترذداتي. وذات يوم ذهبت لمقابلة والديها، وأعلنت لهما أني سأترك ابنتهما. "أنا بحاجة لأن أرى العالم"، قلت لهما. بكت أمها، وأبوها ضغط بعصبية على غليونه. وعلمت بعد ذلك أن جاييل قضت شهورًا عديدة نزيلة بإحدى المصحات النفسية. ولمحتها مرةً في الشارع، كانت نحيفة بشكل متطرف، وترتدي ملابس سوداء، فاختبأت خلف شجرة كي لا ألتقي بما صنعته يداي.

كانت فابيان على العكس تمامًا من جاييل، كما ستكون لورانس لاحقًا

على العكس تماما من فابيان، دون أن تحيلني أبدا إلى جابيل. من الناحية الفيزيقية كانت طويلة وجميلة وباردة على قدر ما كانت جابيل قصيرة ومعذبةً وحساسة. وفوق كل شيء في حين كان الأمر بسيطًا مع جابيل، لم تكن فابيان تستطيع الاستمتاع سوى مع رجل ثهينه، كانت تحبني، أفضل ما كنت أتوقعه منها قد ارتجع ضدي. لقد شهدنا لياليفظيعة. كانت لا تكف عن التأكد من عدم وجود بقعة تلوث مؤخرتها.

وبعد ثلاث سنوات لم يقربها فيها أحد، انتهت بأن أسلمت نفسها لإسباني وسيم، كان خارجًا من السجن. صيف كامل كانت تستمتع بإهانته. كانت تستخف بكلينا. وعندما عرفت بذلك، قذفت غاضبًا بقطة صغيرة كنا نربيها من النافذة. فاصطدمت بزجاج نافذة في البناية المقابلة. وبحثت عنها مفزوعًا في الظلام. وفي النهاية، سمعتها تموء بضعف. فُتحت نافذة، ودعاها صوت امرأة. لقد نجت.

كانت فابيان جالسة على الأريكة دون حراك. صامتة كتمثال. صفعتها. وندمت على ذلك عندما انسحبت نحو الحمام، لترى إن كنت قد شوهتها. لم أكن أعرف ماذا أفعل. فجرت زجاجة من الحبر على الجدارالذي تغطى بلطخات برز من بينها قرد عملاق. البقاع على قميصها الذي فتنتني في لقائنا الأول أفصحت عن أسرارها. في نهاية هذه الليلة الملعونة، كنت قد استنفدت كل رصيدي من الغيرة.

في الشتاء التالي تركتني. "إلى أمريكا والحياة الحقيقية" كما أكدت. تخلّيت عن إقناعها بحماقتها. كنت مرهقًا من قصتنا. لم تحفظأي من وعودها.

غادرت. ولأول مرة أعرف ما هو اليأس. وبدا لي مرعبًا وصحيًا. تفتقد شخصًا واحدًا فيعاد تسكين كل شيء. كل الليالي كنت أضع ذلك في الرسم، غائبًا في الغضب ومحلول "الترياتين" على لوحات رسم تفوق طولي بمرتين. ساعات بأكملها أفرغ أحشائي على خلفيات ناعمة، وأبعث تناغمات حية. كانت الغرفة تتجمد، لكني أبدًا لم أشعر بالبرودة. كانت ليالي عظيمة، روح البقاع كانت تتكلم فيّ.

بعد شهرين، هاتفتني فابيان من سان فرانسيسكو، حيث كنت قد أرسلتها لشقيقي. كانت حالتها في الحضيض. تبكي ليل نهار. وكانت تريدني أن أذهب لأجيء بها. لم تكن لديها الطاقة حتى ترجع إلى باريس.

لم تخطر على بالي فكرة أنها تبالغ. وبدا كأني لم أكن أنتظر غير ذلك:

المغادرة. ذلك النداء من طرف العالم الآخر كان لا يقاوم. وخلال خمسة عشر يوما، بعت القليل الذي أملكه، لجمع النقود للرحلة، وأهملت مشروعا لمعرضي الأول.منحة البطالة ستؤمن حياتي هناك.

لم تخطر لي للحظة فكرة أنني أسافر لاستعادتها. يجب فقط أن أصل إلى هناك، كان ذلك بيني وبين نفسي: نصيبي.وكنت مع ذلك أول من انتقد رحلتي العبثية. أصدقائي كانوا يعتقدون أني أحاول إثارة الاهتمام.

ارتمت بين ذراعي في مطار سان فرانسيسكو. ومنذ تلك اللحظة، أصبح كل شيء غير واقعي. وبخمسمائة دولار اشترينا سيارة بويك سكايلارك زرقاء لامعة، وانطلقنا نحو الشرق، مائلين تجاه الجنوب. كما لو كنا خارج الزمن. منطلقان بالسيارة ليل نهار. لم يكن هناك معنى لأي شيء. كنا نمارس الحب بيأس. وفي كل ولاية، كانت الشرطة توقفنا لتجاوز السرعة، وطاردونا حتى بالهليكوبتر في صحراء تكساس.وعندها كنا نغادر لنلجأ لولاية أخرى. كانت المناظر الطبيعية تتابع كأشرطة فريق "ذا كيور" أو "برنس"، التي كنا نشغلها في الخلفية. وعدة مرات كدنانتعرض لحوادث. ولم أكن أعبأ حتى بالحصول على تأمين.

كل ثلاثة أو أربعة أيام، كنا نتوقف في فندق صغير، لنتحمم وننام في فراش نظيف. نركن السيارة البويك في موقف للسيارات، وتسلمنا الماكينة بطاقة ممغنطة لغرفة الفندق، حيث الموكيت الأرجواني له سمك عشرة سنتيمترات، والأدوات الصحية على الطراز الهوليودي. وفي الصباح نُدخل البطاقة الزرقاء في الماكينة لنستعيد السيارة. ونغادر ثانيةً دون أن نرى شخصا واحدا. كان ذلك مرعبا وجنونيا.

ثم عبرنا الحدود. كانت فابيان تريد أن تزور خليج المكسيك. هناك حيث كان ينتظرنا الموت الذي نبحث عنه. على طريق مهجور يقود إلى لا مكان. طاردنا نصف دستة من عمال مكسيكيين على متن شاحنة نصف نقل. كان ضوء سيارتهم المشع يحاصرنا في الظلام. كنا قد قابلناهم في مواجهتنا قبلها بقليل، ورأيت في نظراتهم كل ما كانوا يحلمون بفعله في شقراء بساقين عاريتين برونزيتين في سيارة بويك تحمل لوحة أرقام من كاليفورنيا بالولايات المتحدة. كانت حياتهم الذليلة تشوه ملامحهم برغبة تطالب بالتعويض. لم يكن هناك أمل في النقاش معهم. كانت غلاظتهم مرعبةً. وبعد نحو ساعة التفوا عائدين ولحقوا بنا.

محاولة الفرار منهم كانت بلا فائدة.كانت السيارة البويك تتقافز على

أحجار ضخمة.وترتطم في المطبات. لم أكن أستطيع زيادة السرعة دون المخاطرة بالانقلاب في هوة، أو بانفجار أحد الإطارات. وعلى مدى البصر، كان يمتد السهل، وما من أمل في النجدة. لا أحد يعيش هنا ولمسافة عشرات الكيلومترات.

شعرت بالأسف الشديد من أجلها. ما سيحدث بعد ذلك ليس لطيفًا. ولا بالنسبة لي أيضًا. أذكر أني حاولت أن أتفوه بدعابة. شيء من قبيل: "هيا، سينتهي كل شيء خلال ساعة، ماذا يمكننا أن نفعل. الحياة جميلة". لم يكن ذلك من قبيل الشجاعة، ولكن فابيان كانت مرتعبةً إلى جواري، حتى إن كل خوفي قد ذهب إليها وامتصها. كانت الدموع تسيل على وجنتيها، وقد لفّت حزام آلة التصوير حول كفها. كانت هي السلاح الوحيد الذي وجدته. طلبت منها أن تختبئ في الدواسة. فتكوّمت على نفسها قدر ما استطاعت، وبقيت دون حراك.

---

1 يلعب الكاتب هنا على الجناس بين اسم Laurence وتعبير l'eau rance أي الماء الزنخ

2 ويلعب هنا على الجناس بين كلمتي plais أي تعجبني وكلمة plaie بمعنى جرح

3 بطل لمسرحية «عد والبشر» لموليير.

4 بطل رواية الكاتب الألماني هاينري شمان الشهيرة بالملاكا لأزرق، والفيلم الأشهر المأخوذ عنها.

5 يلعب الكاتب هنا على الجناس بين كلمتي perds بمعني تفقديني و père بمعنى أب.

6 يلعب الكاتب على الجناس التام بين كلمة quarantaine بمعنى أربعينيات، ونفس الكلمة بمعنى حجر صحي، حيث كانت العادة القديمة أن يوضع المريض في الحجر أربعين يوفا.

7 بايار هو اسم لفارس فرنسي شهير من القرن الخامس عشر.

8 الشانزليزيه تعني ترجمتها حقول الإليزيه.

9 بوريسفيان (١٩٢٠-١٩٥٩) كاتب وموسيقي وفنان فرنسي متعدد المواهب،كان أيضا مهتما بشكل خاص بموسيقى الجاز.

10 يلعب الكاتب على الجناس بين اسم القرصان rackham وكلمة requim التي تعني سمكة القرش.

11 اسم إيف هو ترجمة اسم حواء العربي.

12 اختبار نفسي يعتمد على تفسير الأشخاص – محلًا لاختبار – لتشكيل من بقاع من الحبر، ثم تحليل هذه التفسيرات.

كانت السيارة تنطلق في كل الاتجاهات وكنت أعافر للسيطرة عليها. الوصول للطريق الدولي في الوقت المناسب كان أمرًا مستحيلًا. وبينما كنت أقود أخذت أفكر: "لقد أزفت ساعتك. ها هي ساعتك الأخيرة قد أزفت يا جريجوار. مسارك يتوقف هاهنا". كانت تلك هي الكلمات التي خطرت في بالي. فكرت في ذلك ببرود. كان الأمر مجرد إثبات حالة. لم أجد شيئاآخر أقوله لنفسي.كنت مقتنعًا أن ما سيجري هو مجرد شكليات قبيحة لا تعنيني إلا قليلًا. لكني مع ذلك لم أكن لأعبرها: هل كل ما عشته سينتهي على هذا الطريقالوعر؟ عند هذه النهايةالحقيرة؟ لم يكن لهذا أي معنى. لم أعش شيئًا بعد. هؤلاء الناس لا يعرفوننا حتى. فكرت أنهم ربما لن يعثروا أبدًا على جثتينا. وكان من الجائز أيضًا ألا يسمع أحد بما كان يمكن أن يجري لنا. كنت أتفحص المنظر أمامي. أردت العثور على شيء ما، شجرة،خميلة، عود أو أي شيء يشهد علي. أو يدل على المكان على الأقل. لكن لم يكن هناك أي شيء.

وهنا اكتفيت من كل هذا. لقد طالت هذه المسخرة أكثر من اللازم. كبست على المكابح وأوقفت السيارة في منتصف الطريق. لينتهيكل هذا إذن. كنت مستعدًا لذلك. توقفت العربة نصف النقل أيضًا. كانت أضواؤها الأمامية مصوّبة نحونا من على مبعدة نحو عشرة أمتار. أطفأت المحرك. فساد صمت شامل. كنا نرى الريح تجتاح السهل عبر الزجاج الأمامي. كانت ليلة رائعة. تبرق بملايين النجوم. صندوق القفازات لم يكن محكم الإغلاق. كنت أرى يدي على عجلة القيادة. لم يحدث شيء. لم يأتوا. كانت فابيان مستقيمة في جلستها ومترقّبة مثلي. ولكن ماذا يفعلون بحق الجحيم! لعنت بأعلى صوتي وأدرت المحرك بعنف. نصف النقل انطلقت أيضًا. ولحقت بنا بعد ثانية. توقعت أن يصدمونا، ولكن على عكس ما هو متوقع، تجاوزونا وانطلقوا في الظلام. نظرنا أحدنا إلى الآخر في السيارة. وفي كل لحظة كنت أتوقع أن أشاهد الشاحنة معترضة الطريق. ولكنهم كانوا قد اختفوا ولم نرهم ثانيةً. بعد ثلاث ساعات عبرنا الحدود الأمريكية.

هزّ ضابط الجمارك الذي حكينا له مغامرتنا السيئة رأسه، وقال مُعلقًا: " كل الناس مسلحون في هذه المنطقة، وعندما أوقفتما السيارة ظنّوا أنكما مستعدان لمواجهتهم، ولم يجرؤوا على الهجوم. لقد توقعوا سقوط قتلى. أنتما محظوظان للغاية".

وقيل إن تلك الليلة كانت ليلتنا: ونحن نصعد نحو الشمال اجتزنا غابة. مئات الظباء والأيائل كانت ترعى على جانبي الطريق. ربما كان هناك الآلاف منها. وأخريات يخرجن باستمرار من بين الأشجار. أوقفت السيارة بهدوء على العشب. والأيائل تفسح الطريق أمامنا بالكاد. كانت تتقافز في الضوء العاري لمصباح السيارة. وكان المرء ليشعر أن هذا هو وقتها. شباب يجري بين أوراق النفل. أطفأت المحرك. وعلى مقدمة السيارة الدافئة، بلفت فابيان ذروة نشوتها للمرة الأولى بين ذراعي. وفوجئت هي بذلك. لم تكن تعتقد أن ذلك ممكن. كان وجهها أحمر، وانخرطت في ضحك كطفلة. كانت خفيفة فجأة. بإمكانها إذن أن تستمتع دون إهانة. لقد زفعت اللعنة. كان لا بد لها من ملامسة الموت لتصل إلى ذلك. كانت ليلة مهمة بالنسبة لها. وبعد ذلك بقليل عدنا إلى فرنسا.

وفي الطائرة شعرت بسكينة لا توصف. ولم يكن لفابيان أي دخل بذلك. كان عندي الشعور بأني تصالحت مع تاريخي. حققت ما كان يجب أن أفعله. لمرة واحدة لا يتم إحباط الأمور. لم يكن الموضوع كمباراة الجولف التي تم إلغاؤها.هذه الأفكار جاءتني بشكل متنافر. بزغت من النسيان كإشراقة. فقط كلمة جولف بدا أنها لملمت حياتي خلال تلك السنوات الأربع، نعم، كل شيء كان في تلك الكلمة الصغيرة المكونة من أربعة أحرف التي اختطفت خيالي منذ قامت السيدة فينويك بإلهابه منذ خمس عشرة سنة مضت، كتحقيق متأخر لنعمة رفضتني. ودون أن أشك فيها، كانت قد صارت رمزًا للسعادة بالنسبة لي كما كانت العنقوديات الذهبية بالنسبة للموت.

أتذكر إذن أني منذ لقائي بفابيان، كنت أريد أن اخذها "خارج باريس"، وهو العنوان الوحيد للمكان الذي يجب أن توجد به مباراة الجولف التي كانت السيدة فينويك قد وعدتني بها. هنا أيضًا كانت رغبتي قد أفصحت عن نواياها: في قميصها الحريري كان على فابيان أن تشبع هذه الذكرى التي ظلت غير متحققة. وبالفعل، نجحت في جذبي نحو مباراة الجولف الكبيرة، تلك كانت رحلتنا المتهورة عبر الولايات المتحدة، وحتى تلك الهاوية قبل الأخيرة في خليج المكسيك، حيث شارف كلانا على السقوط. ولكنها انتهت بسعادة فوق الخضار وبين الظباء والأيائل. والآن فهمت الدافع الذي دفعني لترك كل شيء للذهاب إلى الضفة الأخرى من المحيط. هناك كان يعاد اختراع الجولف الخاص بي، أبعد مما كنت أتخيل عن باريس، كما لو كانت أبعاد الأسطورة يجب أن تقاس في أبعد مسافة

جغرافية. وأنا أهبط من الطائرة، كنت أعشق الحياة.

لم يعد لدينا أي نقود في باريس، ولا مأوى ننام فيه. استضافتنا شقيقة فابيان التي تُدعى لورانس. لم يكن من الممكن إطالة ذلك الظرف حينئذ. وذات ظهيرة، بينما كنا نتناول مشروبًا في مقهى "فلور"، عبر الصالة صحفي شبه معروف. دفعتْ فابيان للذهاب لمقابلته. كانت لديها بطاقة صحافة وربما وجد لها عملًا. لم تكن لديها الجرأة. فسخرت منها. فذهبت إليه. جلسا إلى طاولة بعيدة. بعدها بساعة كانا يغادران معًا. ومن نافذة المقهى رأيته يلف يده حول خصرها. وبعدها بعام، علمت من إحدى الصحف بالمصادفة خبر إنجابها لابنتهما الأولى.

وهكذا خرجت من حياتي بخروجها من هذا المقهى، دون كلمة ولا التفاتة، ولا نظرة حتى، بعد كل ما عشناه، ولا شيء، كي لا تظهر ثانية ولا أعرف أخبارها لمدة عشر سنوات.

عمل كبير من الاختفاءكدت أجن تقريبًا. وفي اليوم التالي ابيض شعري من أحد الجوانب. لن أعود من هنا. ولكن أي حاسة شم تلك التي أتمتع بها، أنا من لا يشم أصلًا، لكي أختار من بين النامر المخلوقة القادرة على إعادة إنتاج اختفاء السيدة فينويك، والذي كان منذ خمس عشرة سنة يعتبر غير قابل للتجاوز؟ التاريخ يكرر نفسه بطريقة كاريكاتورية، أغمغم مقهقها في الشوارع. قبل أن أقول لنفسي ربما التكرار هو ما يصنع التاريخ.

لم أكن أعرف أين أذهب، وعشت لمدة ثلاثة شهور في الشارع، على ما تتيحه لي إعانة البطالة هائمًا على وجهي في النهار، لم أكن أعرف من أنا، وأنام عند الفجر في سلالم البيوت. لم أعد أعرف أحدًا، ولا أحد يعرفني. ومع ذلك لم أكن وحدي. كنت أسمع أصواتًا طوال الوقت تأمرني بأن أنحرف يمينًا أو يسارًا، أو بالسير في اتجاه مستقيم، أو بالصهيل، لأنه كان قد نما داخلي حصان (إن جسد الحصان شديد الضخامة).

الأصوات لم تكن شريرة، لكن لو كانت أمرتني بقتل أشخاص مجهولين أو بالقفز في الفراغ كنت سأطيعها أيضًا. هذه النوبات كانت تستمر لساعتين أو ثلاث. تداهمني مع انتهاء النهار وحتى الحادية عشرة والنصف. تكتفي بترنّح الشفاطة في أحد الأكواب، بكلمة مفاجئة في أحد الحوارات، باللغة المشفرة لأضواء إشارات المرور في أحد التقاطعات، لكي تأخذني في رحلة عبر المدينة. كان كل شيء عبارة عن علامة بالنسبة لي.

جاءت بشكل اعتباطي واختفت الأصوات بنفس الطريقة، تاركة إياي مندهشا وممتلئا بشعور بالقوة لا يستطيع استبداله شعور آخر. لا البرد، ولا الجوع. كنت السيد المجهول للوقت. المختار من قبل العالم السفلي.تجسدا للجنون الكوني.

كنت أجهل نواياها، ولكن عندما كفت الأصوات، استيقظت بشكل نهائي أمام لوحة تذكارية مثبتة بواجهة إحدى البنايات. على الرغم من أن اسمي لم يكن محفورا فيها أبدا. حيث كنت وقتذاك أجسد كل المختفين العظام. وعرفت جولات رخامية. كانت المدينة بأسرها قد تحولت إلى مقبرة، وأنا أذرع طرقاتها بين زحام الموتى كشبح يبحث عن قبره. الموت والحياة كانا قد تصالحا لمرة.

عندما تركتني الأصوات لحالي، بدأ معي هوس جديد. وهو تدوين كل ما يجرى لي على هامش أي ورقة جريدة أعثر عليها، وهي أسرع طريقة للدعم، ظهرت لي في ظروفي تلك. لأنه بين أخبار العالم التي تغمرنا، كنت أسعى لنشر أخباري أنا أيضًا، لأطمئن الكوكب على مصيري فلا أختفي كليةً. فالإنسانية كانت تعتمد أيضًا علي ولاتزال، كما هي تعتمد على كل شخص آخر.

أتذكر جملةً كنت أسودها بشكل في كل ما تقع عليه يداي، كتعويذة أعلقها على أي شيء: لقد ضاع الطريق في مسار الرحلة، وهذا يعني أن هناك رحلة" لا أعرف أي رحلة لكن هذا اليقين حافظ على كياني قائمًا. ما كنت قد عشته لم يكن بائسًا وغير متجانس كما كان يبدو. كان هناك سبب لتدهوري. ربما كان من حظي أيضًا. لم أفقد الثقة: المستقبل كان موجودًا على الرغم من كل شيء.

وفي الواقع، وعندما انسحبت من القصة، تحققت من أني كنت قد عشت لمدة ثلاثة أشهر كطفل في التاسعة، في جسد رجل في الثلاثين كي أرفع الحصر الذي تركه ذلك العمر في نفسي. ولو اعترضت طريقي مظاهرة فإنها مظاهرة الجنون، الاعتراض الأخير للحياة عندما يفرض الموت نفسه عليها بشكل قسري. تداخلت كل الصور، وتعمقت بتنويعات. وأعيد إنتاج نفس المشاهد. تتابع تاريخي بشكل متطابق، لكن من زاوية أخرى، جيب تمام الزاوية القديمة.

وهكذا، لم يكن أحد أفراد شرطة مكافحة الشغب هو من أخذني إلى البيت: في يوم كثيف الغيوم، كنت قد ذهبت للجلوس في حديقة عامة

صغيرة، وطفقت أتكلم بصوت عال مع فتاة صغيرة متخيلة، اعتادت على سماعي منذ وقت طويل، جالسةً بحكمة بجواري على الدكة. لقد كانت ماري بلانش، التي عادت إلى ذهني، بزغت من أطراف العالم كي تمنحني الشجاعة. ومعها جاءت دموع كنت أحبسها منذ أكثر من عشرين عامًا.

لم تكن قد تغيرت. وجهها الجميل والصادق، وهيئتها المتفكرة، والندبة الصغيرة على ذقنها، وشعرها الأسود القصير الذي يضيء بشرتها الداكنة نوعًا: لم يغير الزمن شيئًا. وهي أيضًا تعرفت علي. حبي القديم لم ينسني. لقد اجتمعنا أخيرًا. وشفيتفوزًا. لأنه منذ تلك اللحظة توقفت الأصوات، كي لا تظهر مرة أخرى إلا على هيئة هواجس بلا موضوع، كانت تداهمني بشكل دوري في بعض الليالي، وتتركني مجمدًا من الرعب على حافة هاوية، وتهتز داخلي هامسة باسمي.

وبعدها بقليل كنت قد تذكرت أن لي أبوين وطرقت بابهما. وبعدها بعشرين عامًا نفس الظروف ستأخذني إليهما. في وقتها لم ألحظ ذلك، لأن النسيان كان يوجه خطواتي. منذ ثلاثة أشهر كنت أجهل أنه لا يفعل سوى أنه يأخذني إلى تلك الأماكن الخاصة بيوم الأحد المصيري الذي قلب كل شيء رأسًا على عقب بالنسبة لي. وبطريقة معصومة مررت ثانيةً دون أن أدري بنفس الساعات، التي أصبحت أسابيع منذ لحظتها. وتمددت الدقائقواستطالت بدورها.

وهكذا مكثت عند أبوي وقتًا يتناسب مع الوقت الذي كان يلزم لي قبلها بعشرين سنة لأتناول العشاء بصحبتهما أمام التليفزيون، قبل أن أذهب للنوم وأنسى كل شيء. لم يوجّها لي أي أسئلة ولم يحرجاني بأي شكل، واستقبلاني هكذا بكل بساطة.وهذه المرة كان تحفظهما ملزمًا لي.

لكنهما لم يستطيعا أبدًا فعل شيء لأجلي، ولا حتى التليفزيون الذي لم أشاهده آملًا في العثور على تفسير لما حدث لي، كما حدث معي في سن التاسعة. لكني قد عثرت على المعجزة التي كنت أحتاجها: ملحمة الأوديسا لهوميروس، التي قرأتها كاملة ذات ليلة رائعة.

لم أعرف مسبقًا تجربةً مماثلةً مع كتاب، ولا لاحقًا. لقد كان ذلك كأنني أهب وجهي للشمس. كل بيت شعري بها كأنه كتب لي، ليمتزج بروحي، ويتسرّب عبر عينيّ وأذني. لقد كنتُ القراءة نفسها.

وبالأحرى، كانت الأوديسا هي ما فك لي الشفرة. لأن كل شيء اتضح فجأةً على نورها. ظهرتطابق خارق بين ما كنت أقرأه وما كنت قد عشته.

تلاشت الحدود وكنت أرى بين السطور من أين مررت أنا نفسي. في علامات مغامرات عوليس تتكشف مغامراتي، لابشكل متطابق، لكن كاستعادة. خاريبديس وسكيلا، وقطيع رب الشمس، ووحش السيكلوب. لقد عشت، بطريقتي، كل هذا. وبإمكاني أن أذكر الأماكن والتواريخ.ولأستعيد الخيوط، ألم تكن الأصوات التي كنت أسمعها هي أصوات الموتى التي كانت تداهم عوليس الهابط إلى الجحيم؟كما أن أرواح الأبطال كانت تسعى لتقص علي حكاياتها أنا أيضًا. هل هبطت إذن إلى الجيم؟ إذن فقد كانت الأوديسا هي الوحي الذي ألهمني مستقبلي. كان يتوجب علي أحيانًا أن أضع الكتاب جانبًا لألتقط أنفاسي.

فكرت عندها في قصص حبي، لقد عرفت أربعقصص جديرة بهذا الاسم، كعوليس على مدار الأوديسا. كل شيء تأكد. كاليبسو ، وسيرسيه، وناوسيكا وبينلوبي بالنسبة لي كن معروفات بالشكل. كنت أعرف عناوينهن القديمة، وأحتفظ لهن لا أزال بصور فوتوغرافية. عروس البحر كانت تلك التي صورتها عاريةً في الحمام في إحدى الإجازات بكورسيكا (وكعوليس مللت منها وحلمت بالرحيل)، الساحرة هي تلك التي اتخذت وضعًا لي لأصورها تحت الشمس في صحراء تكساس (لم يحولني جمالها البارد إلى خنزير ولكن إلى حصان)، وابنة الملك كانت قد تركت لي صورتها وهي تداعب نفسها أمامي (وككل الفتيات، كانت تذهب كل صباح لتغسل ملابس أسرتها القذرة في النهر، وفي حالتي كنت أنا النهر)، وبالنسبة لبينلوبي فقد كانت هناك صورة مدرسية تظهرها في الصف الأول محاطة بكل المتوددين. لقد كن متماثلات مع الأربعة في الأوديسا. الشمال، والجنوب، والشرق، والغرب. الشتاء، والخريف، الربيع، والصيف. يهوديت وراحيل... أما أثينا حامية البطل ذات الألف حيلة، أتزال هناك حاجة لذكرها؟

أتذكر أيضًا ذلك الرسم الصغير المحفور الذي انتشر في نهاية عهد لويس الرابع عشر. كان يمثل ملك الشمس محاطًا بالنساء الأربع اللائي أحبهن، وكل واحدة تضع يدها على جزء منه: مادموازيل دو لا فاليير على قلبه، والسيدة دو فونتانج على خصيتيه، والسيدة دو مونيسبان على عضوه، والسيدة دو مونتينون على تاجه. هو أيضًا كان نسخة جديدة من عوليس.

عندما انتهيت من القراءة، كان النهار قد طلع دون أن أشعر. أبواي كانا قد ذهبا إلى العمل. بقيت وحدي في غرفة طفولتي. لكن كل شيء كان قد

تحول شكله. وللمرة الأولى منذ فترة طويلة كنت هادئًا. كانت الأوديسا واقعة بجوار سريري. لم أعلّم على أي جملة فيها. كان ذلك بلا فائدة. ألم تجد لي هي المسار الذي ضاع فيه طريقي؟ ليلة بكاملها ويدي تمسك بخارطة الوقت، ومن لحظتها، أستطيع أن أحدد عليها رحلتي وموقعي في العالم. لا أدري أي بوصلة توجه حركة الآخرين في الحياة، وهل يتحركون بدافع من النقود أو أي شيء بارد وغير شخصي هكذا، ولكن ذلك لم يكن يعنيني.

لم يكن يهم هل كنت مخطئًا أم مصيبًا، لم تكن هذه هي المسألة. وكنت على حق. يوجد بُعد أسطوري للكائنات والمواقف يضفي على الواقع رحابة، مرفوضة في الأحوال العادية. وإذ كنت لا أجد أي معنى لوجودي، فقد أضفت الأوديسا على كل ما عشته معنى هوميريًا مفيدًا. لقد علمني الكتاب الحياة من زاوية غير مسبوقة. لقد وضع أختامًا عتيقة على اضطرابي. وهي لا تزال قائمة.

لماذا كنت أسمح لنفسي بالاقتناع بأنني يجب أن أعالج نفسي، إذا كان الأمر يتعلق بيأس لا استخدام له إلا أذى الذات والآخرين؟ لو كان الأمر أن أسقط مريضًا بالفعل أو أستنزف نفسي بين ذراعي برامج التأهيل بمضاعفة الحزن الخاص والعام.لم أسع أبدا كي أكون متعقلًا هكذا. لو كنت مجرد لا شيء في نظر العالم، فقد كنت موجودًا من أجل الأوديسا، وهذا أعطى شرعية في النهاية لوجودي على الأرض. لقد عفدني هذا الكتاب. لم أكن عوليس، ولم يراودني ذلك الوهم أبدًا، ولكن الدورة قد تكررت عبري. يمكنني أن أعتبر نفسي سعيدًا.

بالإمكان أن نعتبرها ما نشاء، ولكن الاعتقاد أني نسخة جديدة من عوليس كان أكثر قيمة بالنسبة لي من اعتبار نفسي رجلا حديثا. خيال بخيال، وخيالي رد لي حرية الحركة. لقد أعطاني القدرة على قول لا لقوانين هذا العالم الهزلية. لم تعد روحي اجتماعية، ولا جسدي. دون الاضطرار لنفيها تجاوزت الفروض المشتركة كما لو كان بفعل السحر.

إن موارد الإنسان لا نهائية: أنا، من كنت أعيش في الشارع، ألم أعثر دون تخطيط مسبق على ملجأ مكون من أكثر من عشرة آلاف بيت شعري، وبعبارة أخرى أكثر اتساعًا من شقة مساحتها أربعمائة متر مربع بشارع جابرييل؟لا أحد يستطيع أبدًا طردي من الأوديسا. لقد كانت كمعبد محفوظ لأثرياء الروح. الكنيسة التي بلا كاهن لأي دين تكشفت لي وحدي.

ومن وقتها لم أحتج لتعاطي أي مخدرات مشروعة أو غير مشروعة (باستثناء التبغ). إن الصرح الأثري الخاص بي أشد هلوسةً من أي عقار. لأن المرء فيه يخترع إلهه الخاص على الدوام، تسام خاص بك وحدك. إذا فكر أحدهم أن يجعل من الأوديسا إلهه، سيتوجب عليّ حينئذٍ أن أغير ديني. حتى في أسوأ اللحظات، لم تخذلني حياتي من وقتها. لقد وجدت صيغتي الخاصة.

وقد حدث لي أني خالطت بشرًا لسبب وحيد خلعته عليهم، دون أن يعرفوا ذلك (لست مجنونًا لهذا الحد) وهو أنهم شخصيات من الأوديسا. وهذا سمح لي بعلاقات أكثر اتساعًا وجدةً مما تسمح به العلاقات المبنية على المنفعة أو الخوف، كما هي القاعدة في كل مكان. لم آمل في أكثر من ذلك من الناس المعاصرين لي.

الأيام التي تلت تلك الليلة الهوميرية كانت أطول من المعتاد. كان يجب في هذه الأثناء أن أفعل شيئًا. لم أكن أعرف ما هو. أين أوجه خطواتي؟ عدت إلى المقهى الذي اختفت به قبل ثلاثة أشهر تلك التي جسدت لي شبح السيدة فينويك بشكل مثير حقًا للإعجاب. ولم أبرح مكاني. ساعات بأكملها كنت أنتظر أن يأتي أحد ما ليقول لي إلى اللقاء، أي شخص، فقط إلى اللقاء. كي لا أترك هائمًا في الأبديةالبائدة،لكن الناس كانوا يقولون لي صباح الخير وأظل جالسًا، غير قادر على القيام والذهاب، أتأمل إلى مالا نهاية، وأرقب العالم كالمشدوه من على نفس الطاولة، وأنا أحتسي نفس القهوة كل يوم.

كنت أقضي وقتي في القراءة والكتابة في دفاتر. الرسم لم يعد موضوعًا في حالتي، إلا إذا كان بالكلمات. الرسم يشكل جزءًا من حياة سابقة. لا شيء في العالم كان يدفعني لآخذ الطريق بالمقلوب فأعثر على يريديس هذا. لم ألمس فرشاة رسم بعدها أبدًا. كانت تلك هي تضحيتي لأواصل الحياة، كما ترك أبي العزف على الدرامز.

وذات ظهيرة، جاءت فتاة شابة جدًا وجلست إلى طاولتي. ودون أن أطلب منها أي شيء، اقترحت عليّ أن آخذ الشقة الصغيرة التي ستتركها بشارع سان لازار، بثلاثة أشهر مدفوعة مقدمًا.أكتفي بتقرير الأشياء كما صارت. بدا لي اسم الشارع مناسبًا بشكل كبير.

بعدها بيومين، أحضرت لي المفاتيح. كل شيء دار كما لو بفعل السحر. على الرصيف، لم أكن أعرف كيف أشكرها. واكتفت هي بالابتسام،

قائلةً لي إلى اللقاء، واختفت في الشارع. كانت على عجلة لأنها ذاهبة لتحضر ملابس من المغسلة قبل أن تُغلق. وفي لحظتها لم أنتبه مطلقًا لهذه التفصيلة، لكني فكرت فيها بليلتها، وانفجرت ضاحكا بداخلي: ألم أصادف تجليًا لناوزيكا التي قيل في الأوديسا إنها تقابل عوليس وهي ذاهبة لتغسل ملابسها في النهر؟ هكذا كنت أعيش حياتي في تلك الفترة.

واستمر الحال.بعدها بقليل عثرت على عمل عن طريق المصادفة البحتة: بعد مباراة شطرنج عنيفة في أحد البارات، أخبرني منافسي أن وكالة الأنباء التي يعمل بها بحاجة لمحرر للبرقيات الخبرية. وعندما تقدمت، طالبني رئيس الوكالة بسيرة مهنية، فشرحت له أن هوميروس احتاج لعشرة آلاف بيت شعري ليحكي سيرة عوليس. جعله هذا يبتسم، ووظفني.

هذياني اللطيف يمكن أن يكون له فائدة، كان له أن يفكر. كانت خمسة عشر يومًا كافية لتجاوز المحنة، كما يقولون. صار عندي عمل ومأوى. بإمكاني أن التقط أنفاسي قليلًا. لا شيء يدوم أبدًا.

لو كانت الأوديسا تقول الحقيقة، فلا بد أني ذهبت إلى الكينوس، والد ناوسيكا. ذلك الذي قيل إنه أخذ عوليس، البطل اليقظ بامتياز، لينام عنده. وتساءلت عما يعنيه هذا. هل يجب أن أنام في المكتب؟ وقد خضت تلك التجربة ذات ظهيرة، وبعدها بساعة كان أحد الزملاء يهزني بعنف: ولم أسافر ولا مليمترًا واحدًا. بالتأكيد فالأمر لا يتعلق بذلك النوع من النعاس. ولكن أيها؟

ولم يجر شيء كما هو متوقع. الكينوس لم تكن له أبدًا هيئة ملك: في الوكالة كان الجميع ينادونه تاتا، ومرة أو مرتين في الأسبوع كان يأتي ويلتصق بي من الخلف بينما أكتب البرقيات على لوحة المفاتيح. دقائق طوال يبقى فيها ثابتًا خلف ظهري، دون أن يقول شيئًا،يلامسني، وكنت أستشعر أنفاسه في قفاي وكان لدي انطباع لزج أنه يتشمم رائحتي، يغمر نفسه بها بنعومة، بينما تتسارع أنفاسه، كلهاث يذكرني بأخي عندما ذهبت له في سريره، كنت أتجمد من الكراهية.

كنت ألتفت له أحيانًا مستعذبًا للشجار، ولكن في كل مرة كان تاتا يبتسم لي برقة وبراءة، كان لوجهه رقة جثة، ولا يقدم أي تفسير، وأخذت أشك في موقفه. كنت أعرف أني لا أتوهم، وكان من المستحيل أن يلتبس الأمر. دون أن أقول شيئًا كنت أنكب على العمل، بكتلة من الجرانيت في

جوفي. وكان تاتا يبقى قليلًا واقفًا في ظهري. ثم يغادر ليغلق عليه مكتبه، ويخرج منه مرة أخرى بعد نصف ساعة بعينين محتقنتين وممزقتين. كنت أشعر بالدمار.

واستمر هذا الوضع لعدة أشهر. واحتملته بصبر رواقي. لم أكن أرغب في العودة للشارع. لن يكون لذلك، هذه المرة، أي سحر. فجعلت من نفسي كائنًا صغيرًا جدًا. وكنت أترك الآخرين يناقشون في المقصف قضايا الساعة كأنها تحكم قبضتها عليهم. بالاستماع لهم، كان التنظيم الاجتماعي مهددًا من كل الاتجاهات وكان الدفاع عنه أمرًا ملحًا. كنتُ أركز في صحتي.كان بعضهم يسألني بشكل ودي: ألا أوافق على أن هذا المجتمع أصبح كريهًا وأنه ينبغي الاحتشاد لتحسينه، وكنت أجيب بأن تحسين ما هو كريه هو تحويله للأسوأ. عديمو الخبرة في الحياة كانوا الأكثر حماسًا لانتقاد دعابتي. لم أكن أحاول حتى أن أشرح لهم أن طموحي ليس هو أن أوجد في هذا العالم، ولكن أن أوجد عالمًا.

أما تاتا، فكان لا يكف عن الكلام عن هؤلاء الذين يعانون في كل مكان بالأرض، ولكن عندما تستمع إليه تشعر أن لا أحد منا يعيش على وجه الأرض. كان ناشطًا في منظمات غير حكومية. وكان التزامه يثير الإعجاب. في مكتبه كان يعلق لوحةً تظهر مراهقًا فلسطينيًا عاري الصدر جالسًا على حجر كبير وبين فخذيه بندقية تخرج منها زهرةٌ صفراء. كان يحتضنها بنظراته إذ هو يستقبل أحدًا في مكتبه. كان يسبح في بنطاله، مؤخرته كانت مسطحة تمامًا، وكان يرفض أن يمر أي شخص خلفه. أحيانًا كان يناديني جريجوريوس. كشقيقي عندما كان لا يستطيع أن يمنع نفسه من التعبير بلفة ميتة رغبةً منه في إضافة أي شيء لمؤخرة الكلمات.

كنت أكسب عيشي في هذا المناخ الأخوي. مرتبي كان ثمانية آلاف وخمسمائة فرنك بالشهر، لتحرير ستين عنوانًا من أخبار الحوادث على الأقل، حيث يتم قتل أطفال عند خروجهم من المدرسة، وأزواج يذبحون زوجاتهم، وأمهات يخنقن أبنائهن الرضع، دون أن أتكلم عن حوادث الانتحار والنسخ الجديدة من عوليس الذين يغتالون وبشكل منطقي كل المنافسين الذين يقابلونهم في الشارع. أنا من كان يحلم بعشرة آلاف بيت شعري، كنت معاقبًا بكتابة أخبار سريعة مكونة من سطرين.

وكي لا أجن من العجز، كنت أخترع أخبارًا وأبثها بشكل سري. التخريب هو السلاح الوحيد الذي يظل في متناول الجميع.

وذات مساء، قمت ببث خبر حزين لكل المشتركين، أن تاتا قد لقى حتفه مدهوشا في حادث سيارة. عندما كتبت كلمة"مدهوشا"[13] ارتجف اسمي بسهولة. وأرسلت البرقية وأنا أرتعد. وكانت جريمة كاملةً: لا أحد يستطيع العثور على جثة الذي، كان قد صار بالنسبة لي في ثانية واحدة، ميتا أكثر مما لو كنت ذبحته بيدي. ومن هذا اليوم اصطلحت مع نفسي. ولم يلحظ أحد دعابتي.وقد كان ذلك ملهفا أكثر. العمل الذي كان قائما على اعوجاج كياني قد سقط. لم أكن ميتا بعد.

وبعدها بأسابيع سقط سور برلين. البرقيات الصحفية جعلتنا نعيش لحظة بلحظة ذلك الحدث الرائع الذي سيغير حياتنا، وسيصالح البشرية على نفسها. كنا نعيش "نهاية التاريخ" فيما يبدو.

وذات ظهيرة، تركت بغتة مكاني في العمل. لقد اكتفيت منه. ما الذي صارت عليه حياتي؟ كنت أعرف أصدقاء في برلين. يعيشون في حي كرويتسبرج[14]، المكان الوحيد في أوروبا الذي بدا لي أن الوجود له فيه شكل ما. كان سقوط سور برلين قد أنهى صلاحية الحياة التي يعيشونها فيه ويبدو أنهم الوحيدون الذين لا يشاركون في الفرحة العامة. كنت أريد أن أكون بالقرب منهم. غادرت العمل. وفي المساء نفسه كنت أسير في شارع أوريانين شتراسه. عند عودتي من برلين يجب أن أكون قد قابلت في القطار تلك التي ستعيد إحياء مرضي بالعنقوديات الذهبية. في حين كان الجميع يغمغمون بـ"نهاية التاريخ" كانت هي اللحظة التي اخترتها لأعيد الاتصال بتاريخي الخاص. بشكل ما كان الكينوس يقودني نحو بيتي. ولكن لماذا أعيد ما سبق وقلته.

ينسى المرء غالبًا أن في نهاية الأوديسا يترك عوليس بينلوبي ليخرج من جديد إلى الطريق هذه المرة. وانتهى عند البحر فالتفت وأعطاه ظهره. كان عليه في هذه الأثناء أن يحمل مجذافًا طويلًا معه. وكشف له العزاف أن يومًا ما سيسأله أحدهم عما يفعله بمطرحة خباز على كتفه. سيدرك عوليس عندها أنه يجب أن يضع مجذافه على الأرض ويؤسس مملكة. لو كنت أتمنى أي شيء فسيكون فقط لعبة كلمات تشكل من ناحية أخرى ما أحمله معي طوال الوقت – تمامًا كما أشفى المسيحيون في وقتهم ما حمله بطلهم في نهاية الأوديسا الخاصة به فوق ظهره صليبًا.

كان لجدي لأبي حظ أقل من عوليس: فبعد أن عاد إلى بيته عام ١٩٤٥ بعد أربع سنوات من الأسر، قضاها في معسكر للاعتقال، علم أنه متهم

بالزواج من اثنتين، وأن امرأته تطلب الطلاق. وأثبت البحث أن جنديًا من فيرماخت استغل أوراقه ليتزوج تحت هذه الهوية المنتحلة من امرأة فرنسية، وتركها لحظة اندحار النازية.

إذا كانت هذه الدعابة السيئة قد حرمت جدي من فرحة التئام شمل العائلة، فإن جدتي، التي جبلت على فكرة أن زوجها رجل قذر، ظلت وغضبها ملازم لها. ولسنوات كانت تغلق على نفسها الحمام وتقضي ساعات أمام المرآة تحفر في بشرة وجهها بالمقص.

ولأنها لم تكن قد تشوهت، فإن جدتي التي كانت قد درست الفنون الجميلة في شبابها، صنعت من القطن الطبي تماثيل لوجوه ملائكة.

كان عملها مؤثرًا لدرجة أن متاجر "جاليري لا فاييت" طلبت منها تصميم ديكور نوافذ العرض بمناسبة أعياد الميلاد. كان كل شيء جاهزًا، وتوصلت جدتي لتحويل كيلومترات من القطن إلى نموذج لمذود البقر المقدس بكل شخصياته، عندما لوحظ أن التصميم غير مقاوم للحريق. وعلى الرغم من كل المحاولات، تم إلغاء المشروع.

خزنت جدتي عملها الفني في صناديق من الكارتون. ولكن في ليلة، استيقظت وخطت بعض الكلمات في ورقة وهي بين النوم واليقظة، وفي الصباح وجدت بالورقة قائمةً من المنتجات وأسرعت بشرائها من المدينة. وعند عودتها، أغلقت على نفسها الحمام، وعندما خرجت كانت قد أوجدت طريقة حماية القطن الطبي من الحريق.

لم تفسر جدتي أبدًا تلك المعجزة، ولم تكشف لأي شخص سر اكتشافها. وجاء رجال الصناعة من كل أنحاء فرنسا، ووفود من اليابان، عرفت طريقها لسان جيرمان دو لاي، لتعرض عليها مبلغًا كبيرًا من المال.وواصلت.

في عيد الميلاد ذلك، حازت الأشغال القطنية والمضادة للحريق لجدتي إعجاب المارة في شارع هاوسمان. وفي عيد الميلاد التالي أيضًا، إذ كان النجاح كبيرًا.

ومن جانبه، كان جدي يكرس ليالي لحفظ أطنان من الملفات، لم يكن ينتهي من ترتيبها على طاولة الصالون. وعندما تُعرض مباراة لكرة القدم في التليفزيون، كان يقوم عند أول هدف يُسجل: "لقد تمت" يقول قاطعًا الموقف، لم يكن يستطيع أن يتصور أن بالإمكان التعويض.

وكان يدعو امرأته "قطة"[15]، ولا يستخدم اسمها الحقيقي أبدًا. وذات مرة، وضع يده على كتفي وقال لي: " المهم مع النساء هو أن تضحكهن".

وكان أبوه يعيش معهم. كنا نسميه "الجد الآخر". كان يسب الدين والدنيا، وليضايق كنته، كان ينتظرها كل صباح حتى تقوم لتعد الإفطار: فكان يخرج من غرفته، كما ولدته أمه، ويمارس في عمر السبعين تمريناته الرياضية أمامها.

كانت العمة جوت هي الأخت الكبرى لجدتي. ذات صباح استيقظت بنقطة سوداء على وجنتها، وفي اليوم التالي كانت النقطة قد صارت بقعةً صغيرة، كل يوم كانت البقعة تكبر ملتهمةً وجهها. وماتت خلال أسابيع بعد انتشار السرطان. ولازمني لفترة طويلة وجهها الذي كان قد صار أسود بالكامل. وعندما جاء العم جاكي إلى مأتم زوجته بسيارته السيتروين الديه إس البيضاء، التي كانت مدعاة فخره لسنوات. بدا أني الوحيد الذي ربط بينها وبين الإلهة السوداء[16] التي كانت قد صارتها العمة جوت.

بالضبط في اليوم الذي أتممت فيه عامي الثامن عشر، غادرت منزل والدي. صرت بالغًا. واعتقدت أن حياتي بإمكانها أن تبدأ.

لكن في بداية المساء ذات يوم، اتصلت بي أمي. صوتها غريبواهن وخارج عن سيطرتها. قالت لي إنها تحبني، تحبني كثيرًا، لو أعرف... ظننتها سكرانة، أو أكثر من هذا. واعترفت لي أنها تناولت "أدويةً. وإذن! رفعت صوتها. المهم هو أني أحبك، لو تعرف كم أحبك، كنت أريد أن أقول لك ذلك من قبل..."

هي ليست المرة الأولى التي تحاول أمي فيها الانتحار. آخر ثلاث عشيات لعيد الميلاد كانت فرصتنا لنقدم التهاني لشرطة النجدة. وقد بررت عدة مرات رسغها المربوط بعدم مهارتها في استخدام سكين الخبز الكبير. نتحاشى أنا وأخي الاستفسار.

لكن في ذلك اليوم لم أستطع أن أتحاشى أي شيء. أمسك بالسماعة في يدي، بينما يخفت صوت أمي على الطرف الآخر من الخط. أتخيل أنها تنكمش بجوار التليفون لأن صوتها كانيأتي متأوهًا من بعيد. أحاول ان أجعلها تتكلم لأطول وقت ممكن، حتى لا يغلبها النوم، وفي نفس الوقت يجب أن أغلق الخط لأتصل بالنجدة بما إنها لا تزال على قيد الحياة. لا أتوقف عن الدوران حول نفسي في غرفتي. لكن سلك التليفون كان يتعقد، فآخذ في الدوران في الاتجاه العكسي.

وفي النهاية أغلقت الخط وأعلمت أبي في عمله. ثم هرعت بالمترو. وفي هذا اليوم اختار ثلاثة من مفتشي المواصلات أن يضبطونني دون تذكرة. أصرخ فيهم أن يتركوني أمر لأن أمي أقدمت على الانتحار.يغمغمون بتفهم. أزعق في المفتشة التي تدون مخالفتي في بطاقة وردية : "هذا هو الأدب الذي أنتم قادرون عليه" يتوثر فكاها ويرتجف القلم بين أصابعها. ومن حولي اتخذ زميلاها هيئة مهذبة. لا أقاوم. على الرصيف كان هناك إعلان يقول بالأحرف الكبيرة "أحسنت فعلًا بالتفيؤ".يجب قراءته "أحسنت فعلًا بالقذف".

عندما وصلت إلى شقة شارع ماريوف، كانت النجدة قد وصلت. لكن لا بد أنه كان يومًا آخر. لأنه في ذكرياتي، عندي الآن اثنتا عشرة سنة وأنا عائد من المدرسة الإعدادية. البيت غاص برجال الإطفاء وأنا لا أفهم لماذا. أمي ممددة على أريكة في الصالون في قميص نوم. شاحبة ونظرتها تمزق المكان بالمرارة. وفي ركن من الصالون، اثنان من رجال الطوارئ يجمعان الأنابيب والأدوات التي سأعرف في مناسبة لاحقة أنها تستخدم لغسيل المعدة.

أجلس بجوار النافذة، هنا حيث لا أضايق أحدًا في طريقه. أبي يملأ أوراقًا مع رئيس فرقة الطوارئ. يقول هذا إنه يجب أخذ أمي إلى المستشفى. لكنها ترفض ذلك بشكل قاطع: متكومة على نفسها كحيوان مفترس. وتردد للفراغ أنه كان يجب تركها لتموت.

لا تزال متعبة جدًا وشعرها بلا ملامح.

بعد محاولات عديدة، حاول فيه إثناءها عن رأيها. أو التحدث إليها بحزم، كمن يتحدث مع طفلة، صرف رئيس الفرقة نظرًا عن مشروعه،بشرط أن توافق أمي على عيادة طبيب نفسي يتولى أمرها. وافقت أمي بحركة احتقار، ثم أدارت رأسها للحائط.

وجعلنا الانتظار في الصالون. صمت طويل دون موضوع. يسألني أبي إن كان نهاري قد مضى بشكل جيد في المدرسة. وعلى الأريكة، أمي وحدها، تبدو عنيدة.

تستطيع أن ترى تدبيها الصغيرين من ملابسها الشفافة يرتجفان كبقية جسدها. وصل الطبيب النفسي أخيرًا، وأخلى رجال الطوارئ المكان محدثين رجةً بالبناية بأكملها، بأحذيتهم الثقيلة على السلم.

بمجرد رؤيته، تسخر أمي من معطف وبر الجمل الذي خلعة الطبيب النفسي وتركه بجواري. فيم يقعى الطبيب ليكون في مستواها، ويحاول أن يفتح معها حوارًا. وفي كل إجابة كانت أمي تقهقه ضاحكة من أنفها وهي تباعد ما بين فخذيها. ورغما عني ألحظ عضوها. إنه أسود جدًا على الرغم من أن شعرها أشقر، ويصيبني ذلك بالحيرة. لغز آخر إضافي، لكن هذا ليس وقت حله، وأكتفي بملاحظة مناورات الطبيب ليجعل أمي تثق به.

وفي الخلفية، أبي ينصت وهو يعض على شفته السفلى، متكئًا بمرفقة على أعلى المدفأة. يتدخل أحيانًا بصوت رفيع ليدقق تفصيلة، ليتمم الزوايا، ويخفف الدراما. وفي كل مرة تغمغم أمي وتتذمر، ممتلئة بالاحتقار والغطرسة. تتكلم عن قرفها من الحياة، عن لا جدوى كل شيء، ستعاود من جديد على أي حال. تكرر أكثر من مرة: ما هذه الحياة الحقيرة! قميص نومها متعلق بساقيها الشاحبتين المغطاتين باللون الأزرق.

عندما انتهت الجلسة، سحب الطبيب النفسي أبي بعيدًا، يكلمه عن متابعة نفسية، وعلاج. يقول إنه لا يستطيع فعل شيء الآن. لا بد أن تذهب أمي إلى عيادته، كان ممسكًا بالفعل ببطاقة الزيارة. وأبي قلق من المصاريف.

على الأريكة، تغلق أمي عينيها، وتبدو عجوزًا وضئيلة جدًا فجأة. ووحيدة للغاية.

يكتب الطبيب النفسي تذكرة طبية، ويناولها لأبي. ثم يبحث بعينيه عن معطف وبر الجمل. وهكذا يقع نظره علي. يرمقني، ولأول مرة في حياتي يكون لدي الانطباع بأن أحدًا يراني. نظرته تقول لي إني موجود. لقد كففت عن أن أكون شفافًا. فجأة صار لي جسد. وروح. لقد رآني. لقد رأى. لقد فهم. إنه يعرف. سيقول لهم. سيقول لهم كفاكم رعبًا. ربما يأخذني معه حالًا، في الوقت الذي تأخذ فيه الأشياء في الانتظام داخل المنزل، وستنتهي قصة كوني مجرد ممسحة مهملة في أحد الأركان.

أتابع الطبيب النفسي بعيني. يأخذ حركةً باتجاه أبي. أشعر بأنه سيتكلم، بالتأكيد، يبحث عن الكلمات، لا يريد أن يجرح أحدًا، أفهم ذلك، لكني أراه يرتدي معطف وبر الجمل ويأخذ الشيك الذي كتبه له أبي على سطح المدفأة وهو يزم شفتيه. لم يقل كلمةً واحدةً. ولم يحاول حتى. وغادر بعدها بقليل دون ينظر لي، وغادر معه شيء لانهائي داخلي.

وأنا جالس على مقعدي، جاءني فجأة وعي شديد الصفاء أن الأمر لا يتعلق هذه المرة بلحظة سيئة بسيطة قد مرت. الأحداث لا تتوقف في ذاتها لكنها تمتد إلى تبعات، تتحول بدورها إلى أحداث وهكذا. إن براءة المستقبل فكرة حمقاء، لقد رأيتها في ومضة. الوقت متأخر جدًا. إن الحياة التي تنتظرني موجودة في الوقت الراهن، وهي مشحونة مسبقًا بالكوارث التي تقلصها منذ البداية. تنية تم اتخاذهاكومتني في الظل، وحتى جعلتني أتماهى معه. نعم، اضطرب شيء ما، لا أعرف ما هو، ولكن لدي حدس أني لن أكف عن السماع به. ولنفسي سأفكر أني أحمل علامة خطأ على وجودي. ستوجب إذن أن أتشبث بذاتي. أن أكون صلبًا في أعماقي تحت سطح من الابتسام، كي يتركونني وشأني.

في سريري، حكيت لنفسي مرارًا قصة الطبيب النفسي إذ يعود إلى بيته ذلك المساء. يجلس على حافة السرير ويحكي لزوجته عن الزيارة التي قام بها للتو لبيتنا. سيقول إنه كان يحب أن يفعل شيئًا من أجل الصبي. لكن ذلك كان مستحيلًا. وستتفهم زوجته أن ذلك كان مستحيلًا. وهي أيضًا تفكر أنه غير صحي بالنسبة للصبي. وتتور مشاعرها لحزن زوجها وإحباطه وتطوقه بذراعيها. تشعر بالفخر لإشفاقها. ثم يتكلمان عن شيء آخر وأكف أنا عن الوجود بالنسبة لهما.

لا أعرف كم مرة استسلمت للنوم، وأنا أتخيل ذلك المشهد، كحلم أمز به قبل أن تجيئني أي أحلام في نومي. ولكن عند استيقاظي أبصق على هذا الطبيب النفسي العفن الذي بعث في أملا رهيبًا، ثم تركني مخطئًا للوعي المخيف بقدري.

وفيما يلي، أصبح الانتباه لما لا يشك فيه أحد كطبيعة ثانية لي. كان يكفي أن ينظر أحدهم في اتجاه ما كي أجعله يشعر بالعار أنه لم ينظر في الاتجاه الآخر، حيث كان سيجد الأفضل، والذي رفض أن ينظر إليه. كنت أقضي الوقت فيمناوشة كل النظرات التي تتقاطع معي. كان العمى كونيًا، وقد خضت معركة بلا رحمة كي يفتح العالم في النهاية عينيه على ما يستحق، بدلًا من ذلك الزيف الذي يُصر على تأمله بشكل إجرامي. سياسيًا صرت صعب المراس، كل ما كان معتبرًا ككم مهمل، كان يخفي بالضرورة قيمة كبيرة. في النهاية كانت قد صارت تكلفًا. لا يجعلني ذلك ماكرًا على الدوام: ما ليس له قيمة في أعين الآخرين أحيانًا لم يكن له بالفعل قيمة في الواقع. لأمر لا يتعلق منهجيا بي أنا المنسي في أحد الأركان، من ينبغي إنقاذه بأي ثمن. لا، العالم لم يكن طبيبًا نفسيًا يصرف عني النظر في كل

لحظة بجبن. من الممكن أن يكون أسوأ، نظرًا للحالة التي كنا فيها جميعًا.

في عمر الثالثة عشرة. كل صباح أعثر على حصاة أسفل منزلنا، وأركلها حتى شارع كليرك، في حي جرو كايو[17]. حيث توجد مدرستي الإعدادية. وعلى الرغم من كل الشراك التي تنتظرنا، أقودها إلى المرفأ السليم، سعيدًا بسماحي لها بالترحال. ويبدو لي أني أغير شيئًا في الكون كان غير قابل للتغيير. مرة، كادت تدهستي سيارة حيث كنت أتوجه إليها في منتصف ميدان ألما. نفترق كل مرة عند زاوية شارع كليرك، حيث كنت أسقطها في فتحة بالوعة. وفي كل مرة أتمنى لها حظًا سعيدًا. وأتخيل الرحلات الرائعة التي ستقوم بها بينما أنا مجبر على البقاء هنا. على الأقل ستعيش هي مغامرات. وذلك بفضلي. إنها ممثلي في المكان الآخر. قد نلتقي ثانية ربما. قبل أن أرميها في فتحة البالوعة كنت أحيانًا أقبلها بعشق. هذه العادة استمرت عامًا دراسيًا كاملًا.

في ذلك العام ظهرت بياتريس. كانوا قد أدخلوا الاختلاط بين الجنسين في المؤسسات التعليمية الفرنسية، وكانت هي الوحيدة التي جيء بها إلى فصلنا. لم يدم غيظنا طويلًا: لقد كانت كالماء الفوار، وعند رؤيتها بإمكانك تخيل حقول الميموزا في قلب باريس. لم تكن صعبة المراس وكان نهداها محمولين على الذهب.

وفي خلال أيام، كان كل الصف بين يديها. كان يكفي أن تؤشر فتلتفت إليها عشرة وجوه. أصبح الأمر من سيحمل حقيبتها، ومن سيحل لها الواجبات المدرسية، من سيهديها حلية صغيرة. كانت بياتريس تضحك. تعرض خدمات دون أن تضمن تنفيذها. تنظم المنافسات. تحميها جماعة المتوددين. رفضت أن أكون طرفًا في ذلك. كانت هذه التمثيلية ترهقني. كنت أضحك لمرأى زملائي ينحنون لإرضائها. في حضور بياتريس كانوا يردون ردودًا ناعمة، ويتفوهون بالدعابات البذيئة فيما بينهم.

لم أكن أرغب أن ألعب دور الوسيم، ولم أفكر بذلك حتى، بل وكنت أفضل أن أكون قبيحًا. وفي يوم طلبت مني أن أحمل حقيبتها، أجبت متهكمًا أنه لا ينقصها الخدم، ما أهمية ابتساماتها الساحرة إن لم تكن لقاء مشاكسة كلبها الصغير؟ لو لم يكن لدي نية الخروج من الجماعة، فقد كانت لدي نية ألا أكون جزءًا منها.

من ضمن كل المنافسين كنت أنا من وقع عليه اختيار باتريس! في نهاية العام المدرسي، أخذتني من يدي عند الخروج من المدرسة وذهبنا

إلى حديقة صغيرة. كانت شمس يونيو تنيرها. كانت أول واحدة أقبلها في حياتي. التف لسانها حول لساني. أذهلني هذا في البداية، ثم وجدته رائعًا. وقد حدث هذا تحت شجرة كستناء كبيرة، لم تجرؤ على الحركة من يومها. وفي نهاية الأسبوع سافرت بياتريس للعطلة. طوال الصيف كنت أفكر فيها.

وعند بداية العام الدراسي الجديد، وصلتُ إلى المدرسة في اليوم الأول مبكرًا للغاية. كنت شديد التشوق لرؤيتها. لكنها كانت قد غيرت المدرسة. ولم أفاجأ بهذا. منذ وقت طويل كنت قد اعتدت على الاختفاءات. كان العكس هو ما يجعلني أندهش.

وصعدت إلى الصف. كانت الحصة الأولى كيمياء. وكان ينبغي أن نؤدي تمرينًا. وقد حللته في خطوتين، مكتشفًا فجأة أني أعرف القاعدة الثلاثية. كنت أعرف القاعدة الثلاثية في حين أن تلك العملية قد عذبتني طوال العام السابق. حطمت أعصابي حتى الفزع، كانت عائقًا. قبلها بشهرين ما كنت قادرًا على استخدام القاعدة الثلاثية. وها أنا دون أدني مجهود ودون تفكير أعرفها دون أن يشرحوها لي. منذ حصة الكيمياء الأولى كنت أستطيع أن أضع وأن أحل القاعدة الثلاثية، فهمت مما تكون كما لو كنت أعرفها طوال عمري، وكأن القاعدة الثلاثية كانت من مسلّماتي منذ الميلاد.

وخلال أشهر، كنت أتخيل القاعدة الثلاثية في كل مكان: على المائدة، في سريري، وفي وجه أبوي، وفي الشوارع، وحتى في السقف. لم يكن أي شيء سوى قاعدة ثلاثية أحلها بانفعال شديد في كل لحظة. كان العالم عبارة عن قاعدة ثلاثية سهلة الحل.

هذا الهوس دام طوال الثلاثة أشهر الأولى من العام، كنت خلالها أتساءل أي سر يجمع القاعدة الثلاثية ببياتريس وقبلتنا. ماطبيعة ذلك القاء العابر؟ لو كانت مداعبة أولى قد كشفت لي سر القاعدة الثلاثية، أي اكتشاف ينتظرني عندما أمارس الحب؟ ولو كان ذلك مع امرأتين؟ ثلاثة في السرير، كأبوي؟ وبالعكس ماذا سيجلب لي اكتشاف نظرية أمبير؟ تسليع العالم؟ كل الأشياء بدت لي متصلة فجأة، متشاركة في كلية حيوية يعاد تشكيلها دون توقف على الرغم من الحواجز والانفصالات والمظاهر،كان سينقصم ظهري في فهم القاعدة الثلاثية لو لم يكن سرها ينتمي لهذه الكلية.

ومنذ ذلك اليوم عرفت أن لا شيء سيواجهني مباشرة، لأن كل شيء ضبابي، تكثيف لشيء آخر، مسألة جبرية أو قلبية. لم تختف بياتريس بلا فائدة: كانت دائما هنا، أصبحت جنية الجبر، تصحبني في كل مكان، لانفترق. لانستطيع أن نفرق بين القارات وننجو بفعلتنا.

كشفت لي امرأة شابة حكيت لها هذه القصة، أنها كانت ضعيفة في الإملاء بالمدرسة. حتى جاءتها دورتها الشهرية الأولى: فجأة توقفت عن ارتكاب الأخطاء ووجدت سهولة في الكتابة كانت تظن أنها ممتنعة عليها. قواعد النحو التي كانت تبدو لها كالوحوش، وكما بفعل السحر، كفت عن أن تكون غامضة بالنسبة لها.

تذكرت إذن أني في ذلك الصيف استيقظت ذات ليلة بنمل يدب في كل جسدي. كانت أعصابيتصر تحت جلدي، ولم أكن أكف عن التثني في السرير كما لو كان بشتعل. لم يكن بي ألم في أي مكان، ومع ذلك كنت أرغب في الصراخ. كنت أصر على أسناني، كان ذلك أشبه بقوة تمزقني، وكنت أئن وأخنق صوتي في وسادتي. كنت أشعر بالبؤس. وعلى الرغم مني، كنت أحك جذعي وبشرتي بكل شيء، كان شيء ما يقرصني، عند نهاية السرير كانت أصابع أقداميتتململ في كل الاتجاهات. كان ذلكرائعا وموجعا في نفس الوقت. ماذا يجرى لي؟ ومن شدة الإثارة طفرت الدموع من عيني. لم أستطع شيئا مع هذا التوتر الذي أهاج دمي. كان ذلك أقوى مني. قبلت وسادتي ملء فمي وسال لعابي عليها. كنت أريد أن أمزقها أو أي شيء يجعلني أهدأ في النهاية. كان لدي الإحساس بأني أحتضن جسدا حيا وغطست بكاملي في ريشها. وشعرت أني فاقد للسيطرة على نفسي. ساقط. كنت على وشك أن أنهمك في النحيب عندما سمعت نفسي ألهج باسم بياتريس. نعم كانت هي، وجهها، شفتاها. ولم أكن أستطيع التوقف عن ترديد اسمها. كنت أشعر بالخزي، لكني كنت ألهج باسمها وأنا أعانق وسادتي، وأناأنقلب عليها، وأنا أستقيم فجأة لأتداخل معها وفيها بشكل مخيف بانتفاضات لا أعرف من أين تأتي.

عندما شعرت بوسادتي مبتلة تحتي، ابتعدت بحدة: كانت ملطخة ببقع كالمخاط الذي ينسل في خيوط دبقة. مسحت نفسي بعدم ارتياح في الغطاء. كان لذلك مذاق غريب مالح يعلق بالحلق. أعدت وسادتي إلى مكانها على الناحية الجافة. وكنت أسمع صوت تنفس أخي فوق مني، لم يبد أنه لاحظ شيئا. انكمشت بجوار الحائط. لم أكن راغبا في التفكير في أي شيء. لم يكن حقيقيا أني قبلت الوسادة وكل الباقي. لم يكن ذلك أنا.

كنت سأعرف إن كان مثل هذا الشيء طبيعيًا. كانوا سيقولون لي.

وفي نفس الوقت كان لدي الشعور بأن حملًا قد رفع عن كاهلي.

بعد هذه الليلة، تعلمت أن أحيا حياةً مزدوجة. صباح ومساء كنت أستعني في السر تحت أغطيتي وأنا أفكر في بياتريس. وفي نهاية الصيف كنت أعد بفخر الشعيرات التي أخذت تنمو على جسدي. كنت أشدها لأسرع العملية. وتوقفت في اليوم الذي علقت فيه شعرة بين أصابعي. طوال اليوم كنت مدمزا.

في هذه المرحلة اكتشفت القصص المصورة الأمريكية، وأخذت أتابع بنهم مغامرات هؤلاء الأبطال المضطرين لإخفاء قواهم الخارقة عن العالم، تلك القوى التي تجعلهم فريدين في الوجود. ألا أمتلك أنا نفسي قوة خارقة جاءتني ذات ليلة، كالدكتور بانر الذي يتحول فجأة إلى شخصية انكريدابل هلك.

كان ذلك في الثمانينيات، لكني لم أعد أعرف التاريخ الدقيق، ولا يهم. كانت فرقة مسرح فوبرتال لبينا بوش تقدم عرضًا راقصًا على مسرح دو لا فيل. وأعلن سباح بلباس بحر أحمر مزهو كديك رومي عن الاستراحة. وقمت مع الجميع لأحرك ساقي؛ وأخذت أهبط في الممر. عندما لمحت راقصةً بقيت فوق المسرح. واقفةً في ظل الديكورات، بلا حراك، ووجهها مطرق لأسفل. كان وضعها بائسًا بشكل لا يصدق.

خامرني يقين أنها مرت بشيء غير طبيعي. وعلى الرغم من المسافة كنت أشعر أن توترًا ينبعث منها، شيء لا يسمى يسفرها إلى خشبة المسرح ويوقف الهواء. لم يكن يبدو أن أحدًا قد لاحظ أي شيء، وقد ارتعت لهذه اللامبالاة. هل من الممكن ألّا يلحظ أحد الفرق بين ما هو مصطنع وما هو ليس كذلك؟ الأمر لا يتعلق بعاطفة مبالغ فيها، كنت متأكدًا من ذلك. كان المتفرجون يمرون أمام الخشبة، بعضهم مفتون لكن ليس إلى الدرجة التي تجعله يتوقف ويخرج عن طريقه المرسوم سلفًا، والمدفوع بالحاجة الملحة للذهاب لتدخين سيجارة، او لقضاء الحاجة، أو لتناول مشروب، مع الكلام عن كل شيء ولا شيء، مع مناعة تامة حيال الدراما التي كانت تدور بالقرب منهم تمامًا.

كان يمكن أن تموت في أي لحظة، كان ذلك يقينًا، حياتها كانت معلقة بخيط، أما من أحد رأى إذن أن الموت كان يهاجمها ويهدد بخطفها؟ لماذا كان ينبغي أن أكون الوحيد الذي يلاحظ؟ كنت أريد أن أمزق الناس كقطع

الورق. وفي نفس الوقت تعقلت. إن حضور الراقصة على المسرح خلال الاستراحة كان جزءا من العرض، لتحفيز الجمهور، طريقة للقول إن العرض لا يزال ساريًا حتى وهو متوقف، على الأقل ألا تكون الحياة هي المستمرة في أثناء العرض. وأيًا كان، فقد كان كل شيء محسوبًا لجذب هذا النوع من العواطف من الجمهور، وكنت أرفض أن آخذ هذا الإخراج بجدية. القلق الذي أحسست به كان خاضا بي: هذا ما يعلموننا إياه طوال اليوم،وفي قرارة نفسي، كنت أستعملني لإنكار أحاسيسي.

لا شيء نفع مع ذلك. بقيت مقتنعًا أن معاناة الراقصة ليست تمثيلية. التهديد الواقع عليها ليس خدعة. لم أكن أنا من اخترع الموجات الكارثية التي تنبعث منها. ليست لدي هذه القدرة. جذبت ذراع المرأة التي كانت تصحبني وقتها في الحياة، وفي تلك الليلة بالمسرح. لكنا لم تفهم شيئا مما أقوله لها. كانت ترغب في الذهاب إلى المرحاض. تركتها تختفي في الزحام.

كانت الراقصة على مبعدة خمسة عشر مترًا مني. صعدت حينئذ لها على خشبة المسرح، كان ذلك أقوى مني. ماذا يهم مسرح دو لا فيل، أو بينا بوش، أو احترام الثقافة. في ثانية واحدة كنت إلى جوارها. كانت تبكي. وعيناها مغمضتان وتبكي. وجهها كان غارقًا في الدموع، والمخاط يسيل من أنفها حتى شفتيها وذقنها. كانت بملامحها قسوة رهيبة. لم أفاجأ، حتى لو لم أكن أتوقع شيئًا بعينه، كان من المستحيل أن أخدع.

لم تنتبه لوصولي، ووقفت أمامها كالأبله. وفي بالي أن تدخلي وحده كاف. أمسكت بيدها في النهاية. وظننت أنها ستطلق صرخةً، ولكن بدلا من هذا أمسكت بأصابعي بكل قوتها. وظلت عيناها مغلقتين لم تفتحهما في أي لحظة. لم نوجه إلى بعضينا أي كلمة. وظللنا هكذا، متواجهين الواحد ممسك بيد الآخر، حتى نهاية الاستراحة.

لم تتركني. كانت كفها تطحن عظام كفي، واستجبت بدوري بالإمساك بأصابعها. كان ذلك نوع من الحوار بيننا،طويل بشكل مرهق. كان يكفيني أنها عرفت أن هناك شخصًا موجودًا لأجلها، ولا يهم إن كان ذلك هو أنا. كانت قد توقفت عن البكاء، وأصبح وجهها ألطف شيئا فشيئا. وسمعت خلفي نداءات المضيفات تأمرني بصوت خافت أن أغادر خشبة المسرح. لم يجرؤن على المجيء لإخراجي.

لم تترك الراقصة كفي قبل أن يدق الجرس معلنًا نهاية الاستراحة.

دون كلمة أو نظرة اختفت في اتجاه الحديقة، كأنها تطير فوق الأرض. استعادت الراقصة حقوقها. وعدت إلى مقعدي. تظاهرت بأني لا أرى الناس الذين ينظرون لي بشكلهير مريح. وجلست بجوار تلك التي كانت تصاحبني."لابد أن تخضع دائما للمراقبة" همست من بين أسنانها، بينما الظلام يعم الصالة ويعود العرض الذي لا أذكر شيئا منه.

كيف كان يمكن أن أشرح لها أنها لم تكن المرة الأولى التي أرى فيها تلك الراقصة؟ لحظتها، لم أكن أعرف ذلك أنا نفسي. مع ذلك: قبلها بعشر سنوات، كانت هي، التي كانت تكبرني بعشرين عاما وقتها وتتسكع في الليل بمرارة رائعة.

قابلتها خلف شارع تلسيت. كان عندي بالكاد ستة عشر عاما، وكنت قد خرجت في قلب الليل دون أن يعرف أهلي، هاربا من الشرفة بعد إن انتظرت بصبر نافد أن ينام كل من في البيت. وقتها كان لي شهران أو ثلاثة وأنا أهرب هكذا من كل العالم. كانت عندي نية حاسمة أن أواجه الحياة. واستغرق الأمر أسابيع حتى يدخل في حيز التنفيذ. وفي أول مرة لم أمكث سوى بضع دقائق في الخارج، متخوفا من فكرة أن يتم اكتشاف غيابي، كما لم أكن أعرف أبدا أين أذهب في الليل. كان الجو بارذا وشارع ماربوف خاليا مقفرا. قفلت عائدا واستسلمت للنوم.

ولكن المجهول استدعاني. وحلمت بلقاءات رهيبة ومشاهدات ممتعة. بعدها بقليل عاودت من جديد وقد صرت أتوغل هذه المرة حتى شارع الشانزيليزيه. وعلى الفور شعرت بالنسمات. كان الشارع مفمورا بالأضواء ومكتظا بالناس التي يبدو عليها الاستمتاع. كان الليل يبدو متيزا. أخيرا أنا في الخارج. شره لكل شيء، وكنت أمشي بسرعة خلال ذلك كي أعطي الانطباع بأني أعرف إلى أين أتوجه ولا أثير الانتباه. ثم كنت أعود لأنام. ولا أحد يلحظ غيابي. ولكن لو كشفوني، لم أكن لأندم على شيء إذ إن المشاعر التي قد عشتها تنتمي لي.

وهكذا، اعتدت الخروج في السر طالما كان ذلك ممكنا. ولم يحدث لي في ذلك الوقت أبدا شيء ذو بال.أمشي في الضجيج العشوائي، لم أكن أقابل أحدا يدعوني لمعرفته، لو لم يكن ذلك فرارا. وفهمت أيضا لانه كان يلزم لي نقود لأتقدم في المدينة. لم أكن أهتم. كنت أذهب لمعانقة الظلال والأضواء المتاحة.مدفوعا بجرأتي، ووحيدا في النهاية، وكانت تلك الحرية في حد ذاتها فرحة جنونية.كان هروبي هو كل المغامرة. فجأة لا يصبح

الزمن متكرزا. كل شيء يبدو بجمال لاذع وغير مؤكد، لا يعلم بوجوده حتى هؤلاء من ينامون. وكنت قد خبرت معظم الشوارع بشكل جيد لأني أسلكها في انتهار كانت في الليل تصبح عصية على المعرفة، موحشة وغريبة الأطوار، وكان ذلك التحول هو ما يذهلني، كنت أشعر بنفسي حيا. كان العالم متسقا.

أخذت أوسع الحدود شيئا فشيئا، بالتجرؤ في الابتعاد حتى ما بعد متاجر "دراج ستور" بالشانزيليزيه، لأكتشف أطراف ميدان بلاس دو ليتوال، وبالذات شارع تيليست، حيث اكتشفت كائنات نصف عارية تتحدى الليل. كنت أعرف أن الموضوع يتعلق بالدعارة، لكن ذلك لم يكن يعني شيئا بالنسبة لي. حين أرى واحدة تركب في سيارة، يتوقف خيالي عند صوت إغلاق بابها. دون شك كانت تذهب إلى سهرة حيث يستحم الجميع في النهاية.

بعضهن كن جميلات للدرجة التي ذكرنني فيها بالسيدة فينويك. لم أكن أكف عن المرور مرارا وتكرارا أمامهن، مخبئا شهوتي العارمة خلف لامبالاتي المصطنعة التي تمنعني حتى من التحديق فيما أتطلع بشوق لرؤيته عن قرب. كان الوقت متأخرا للغاية ولم أعد بعد، مكملا تقدمي كمن يتسكع على شاطئ البحر، ولكن بخجل حقيقي وغضب من ذاتي.

وكان يحدث أن واحدة من تلك الآلهة تبتسم لي: أوشك لحظتها على فقدان الوعي. يهرب كل دمي من التفكير فيما يمكن أن يعنيه هذا. وأذهب على الفور لأخبئ أعوامي الستة عشرة في أحد الشوارع الخالية، قبل أن أستعيد توازني كذئب. لساعة كاملة أستطيع أن أرقب من مسافة كبيرة واحدة من بينهن تعجبني. وعند العودة آخذ معي صورتها، كوعد احتفظ به لنفسي بشكل محموم تحت الأغطية.

وفي المرة التالية، كنت أبحث عنها، لكنها في الأغلب تكون قد اختفت، فتجذبني حينها واحدة أخرى. لأنه كان هناك دائما واحدة تروق لعيني، وكانت هذه حقيقة مبهجة.

وهكذا أخذت أخترع مواعيد غرامية ليلية، جعلت خيالي في حالة استنفار لبقية الأسبوع. وبفضلها خرجت حياتي عن إيقاعها المعتاد.

ذات مرة حضرت مشهدا غرائبيا: شقراء طويلة، فاقدة للسيطرة على نفسها تسب رجلا يبتعد دون أن يطلب الباقي. كانت قد رمت حقيبتها على الأرض وترتجف حرفيا من الغضب في مكانها، تصرخ وتشير بحركات

كثيرة، ويشعر المرء أن لا شيء سيجعلها تهدأ، وكل شيء فيها كان يتفجر بخطورة، نوبة انفعال حقيقية، عندما رفعت فجأة تنورتها القصيرة، وأخذت تخلع لباسها الداخلي، وتسحبه بطول ساقيها العاريتين قبل أن تطوح به بعيدًا وتلتفت، كان عضوها مكشوفًا بشكل رائع. فجأة هدأت. خلعها للباس جعلها تتخلى عن غضبها، كأن الغضب كان كامنًا بلباسها. عدت لأنام مذهولًا ليلتها، ومشوش بشأن العضو الأنثوي.

في ذلك الليل العصبي رأيتها. ضئيلة جدًا في الشارع، كانت تترنح بخفة تحت مطر خفيف أخذ في التساقط دون سابق إنذار، مُخليًا الشوارع. لم تكن تتوقف عن التفتيش داخل حقيبتها، وهو ما يعطل مشيتها أيضًا. وكانت هناك فوق ذلك تلك القلنسوة الخضراء التي كانت تتدفأ بها. خضراء كالزجاج تبدو وكأنها بزغت من الليل لتحيطها بالظلال. لقد تحركت نحو القلنسوة لا ناحيتها هي. كانت تبدو كأنها تريد أن تقول شيئًا، تنادي على شخص ماتثير شيئًا ما. في الجهة المقابلة من الشارع، اشتعلت الإشارة الخضراء: وكانت ذلك بمثابة علامة، وعندما تحولت للأحمر انتظرت حتى تعود ثانية. دون أن أعرف، كنت مستعدًا بالفعل لتجاوز كل شيء.

عندما وصلت عندها، تجاوزتها وأنا أبرز هيبتي غير المبالية الشهيرة. لكن ذلك كان نوعًا من الخطل. لقد اكتفيت من المرور بجوار أشخاص وكائنات، تضيع مني كلها. كان الشارع مقفرًا: تمالكت نفسي، وقلبي يخفق وسألتها إذا كانت قد فقدت شيئًا. كنت أود لو عثرت على جملة أقل غباء، أو أن يكون صوتي أوضح، ولكن التحدث إليها كان انتصارًا كبيرًا في حد ذاته. وبالكاد رفعت عينيها باتجاهي وغمغمت بكلمات لم أتبينها. اقتربت، لا بد أنها في خمسينياتها. وربما أصغر من ذلك. كان المطر يسطح شعرها على رأسهاوكان هناك شيء مؤثر في كتفيها.

عندما التفتت لتواجهني، ذهلت من كثافة وجهها. كان فمها يبتسم فيما تبدو عيناها باكيتين. كان ذلك تعبير جنونيًا. كأن ملامحها تصارع كارثةً، وكأن أن كل شيء فيها قد أصبح ملائمًا ليعرض على حافة بشرتها، ليصرخ مستغيثًا أو شيء من هذا القبيل، ليضحك في وجهك، أو فيض من الإنسانية. لم أر أبدًا وجهًا غير قابل للإصلاح مثل هذا. وفي نفس الوقت كان لقلنسوتها فتحة واسعة على صدرها، ورأيت مباشرةً أنها شبه عارية تحتها، ثدياها يتأرجحان، ثديان غير متوقعين، مسطحان ومترهلان، كرغيف مهروس، لكني لم أكن لأهتم لهذا.

عرض تدريبها كان جنونًا، لم أستطع أن أمنع نفسي من التحديق فيهما، وكالشفاء من حالة طويلة من تصلب المفاصل، اشتعل النمل في جسدي الا شيء سو التحديق فيها. ومن هنا كففت عن أن أكون في عمري. تمدد عضوي وأخذ ينبض منتصبًا في بنطالي. لم أشعر أبدًا بشيء كهذا. لم يكن لذلك أي علاقة بما أفعله تحت الأغطية.

كنت أخشى أن تلاحظ شيئًا. لا يجب أن تعرف. ستستهين بي. هل كنت خائفًا أو ما هو أسوأ من ذلك. كأنها عدلت من وضعها بعد ذلك. وبقيت هادئًا أمامها، منخرطًا في الحديث كأن لا شيء يدور. كأن كل شيء طبيعي: هي، وأنا، وعريها المثير للجنون في الليل، واللانهاية التي تكهربني في كل مرة تسقط فيها عيناي على ثديها الذي ينسكب على صدرها.

كانت بالكاد تستمع إلي، واهتمامها منصب على محتويات حقيبتها أكثر من اقتراحاتي. وكان هذا مرضيًا بالنسبة لي. أستطيع تأملها دون خجل. ألا تنظر لي كان هو كل ما أطلبه. لا أريد لها أن تراني. لا أريد أي نظرة غير نظرتي.

وفي لحظة قلت لها إنها تشبه ذات الرداء الأحمر. فضحكت كفتاة صغيرة وقالت بمرح "إذن فأنت الذئب". لم تكن تعاملني بجدية. فشعرت بحالي سخيفًا. كان صوتها ناعمًا وبه شيء من الميوعة، وبعض اللعاب عالق بزاوية شفتيها. لقد كنت مفتونًا بها. كان ذلك كشيء صغير وكريه يرسل لي إشارة. دمي كان يستثار في عروقي.

لم تكن لدي أدنى فكرة عما أريده. لم أكن أريد شيئًا. أريد فقط أن أظل معها. استبقاؤها أصبح هو كل ما أريده. لا أريد لها أن تمشي. لا. لن تختفي كالأخريات، هي لا، ليست هذه المرة. كانت تمطر باستمرار وقلت لها إنه من الأفضل أن تحتمي تحت مدخل إحدى البنايات، كانت ستغرق من البلل. لكنها لم تكن تستمع لي. لم تكن على ما يرام. كانت تترنح في وقفتها. مغلقة أحيانًا عينيها ثم تفتحهما بغتة وتنظر حولها بارتياب.

في لحظة، قلت إني سأتركها لحالها. ولكن بدلًا من هذا زحفت يدي نحو وجهها ولمست وجنتها. كنت أرتعد. لكنها لم تبد أي رد فعل.تشجعت وأدخلت أصابعي في شعرها المبتل ومسدته حتى منابته. كانت حركاتي وكأنها تعرف ما الذي تفعله، مسدت وجهها من اليمين ومن اليسار. أغلقت عينيها. كانت تحت رحمتي.

عندها، قبلتها في عنقها وعلى وجنتها وكل وجهها لاعقًا ملامحها. ولم

أعد أعرف ما الذي أفعله. ووجدت شفتيها. وفتحتهما. كان ذلك دافئا ولا يصدق. وفي نفس الوقت كانت كفي تطبق على ثديها، تضغط عليهما، تلتهمهما. لم أكن أستطيع التوقف. وقد جن جنون عضوي في البنطال. ألصقتها بالسيارة. تركت نفسها. اختنقت بانفعالاتي فتراجعت للوراء لألتقط أنفاسي. وأخذت أتأملها: كانت عارية الصدر، وقد سقطت قلنسوتها على كتفيها، تنظر لي بشكل غريب، كان لكل شيء جمال لا يوصف.

دون أن أتوقف عن مداعبة ثديها، أخذت أحكي لها حكيتا فارغا. رؤية يدي تجري على بشرتها كان يشعل جنوني. كنت أريد أن أغوص في لحمها، أمزق ضلوعها الناتئة، اخترق جسدها لأتجاوزها. ابتعدت قليلًا وقالت بصوت كئيب إنها يجب أن تغادر. لم أسمعها، لم أكن أريد أن أسمعها. لم يكن لديها شيء لتقوله. فقط يداي كانتا موجودتين، يداي اللتان عزيتاها، تبحثان عن شيء يحطم الأرض. يجعلني خالدًا.

قبلتها بنهم. لم تقم بأي حركة لتصدني. كل شيء فيها كان رخوًا، حصرتها في السيارة مرة أخرى. لم أعد أسيطر على أي شيء. أمسكت بيدها وألصقتها بعضوي. أردت أن أطلعها عليه. كي تعرف. لتأخذ عضوي وتضغط عليه بكل قوتها وما لا أعرف بعد ذلك. وفي نفس الوقت كنت أحاول المباعدة بين فخذيها. كنت أريد أن أعرف. كل شيء يفر مني. عضضتها في عنقها. أطلقت صرخة قصيرة. لقد كانت لي. عندما سمعتها تهمس:" ليس أنت. لا. ليس أنت".

وكأنني تلقيت صفعة. تركتها في الحال. كانت قد تكلمت بصوت مُرهق. كيف لست أنا؟ لماذا أنا؟ لم أعد أعرف أين كنت. كل شيء في الشارع يتمايل. رأيتها ترفع حقيبتها التي كانت قد سقطت على الأرض. ماذا عني؟ هل تعرف شيئًا عني أجهله أنا؟ ماذا يخصني أنا بالذات؟ لتقل.

لكنها كانت قد ابتعدت بالفعل، وعبرت الشارع وهي تبذل مجهودًا لكي تسير باستقامة. لم أكن أفهم وهي لم تفهم شيئًا. لم يكن ما فكرت هي به. كنت أحبها. كنت أريد أن أعيش معها. ورأيتها تنادي سيارة أجرة. هذا مستحيل. لحقت بها راكضًا. وبلغتها وهي تجلس في المقعد الخلفي. كنت أريد أن أراها ثانية. لو تسمحين. أخذت يدها. قالت لي: لا بأس. مرة أخرى. يدها ضغطت على مرفقي. شعرت بوجود سائق السيارة فتركتها. أغلقت باب السيارة. جلست على الرصيف. لم أعد أعرف من أنا. من هذا: أنا؟

ليالٍ بأكملها أبحث عنها في كل مكان. ذرعت الحي كله دون توقف. كنت مقتنعاً أنها ستجيئ ثانية. لا بد أنها تبحث عني هي أيضاً. لم تستطع أن تنساني.

وجرؤت مرة وسألت في أحد البارات التي تسهر طوال الليل، إذا كان أحد قد رأى امرأة ترتدي قلنسوة خضراء. وكان لا بد أن أشرح لهم ما هي القلنسوة. رأيت ابتسامةً كريهةً على وجه البارمان. ولم أعثر عليها أبداً.

وفي المدرسة، كنت أرسم لفترة طويلة على هوامش الصفحات وجه امرأة يبتسم فمها فيما تبكي عيناها. ولا تزال لدي بعض تلك الرسومات. وأصبحت نتائجي المدرسية كارثية. لم أعد أؤمن بأي شيء. لا يرضيني الليل ولا النهار. اختفت السيدة فينويك والسيدة ذات الرداء الأخضر لم ترغب في.الشمس والقمر احتجبا في اللحظة الأخيرة. نحو أي شيء أتجه؟ لا مكان لي. ما الخطأ فيّ؟

قبل أن أنام كنت أتخيل أحياناً السيدة فينويك والسيدة ذات القلنسوة: تحتضن إحداهما الأخرى وتتداعبان، لكنهما تأخذان فجأة في التهام بعضهما، ويتحول كل شيء إلى مذبحة. لا يمكن أن تجيء الاثنتان في نفس المشهد، فهما كالليل والنهار لا يلتقيان. في أي لحظة تسلل الرعب؟ أريد إجابةً.

كنت أحلُّ واجباً مدرسياً في اللغة الإنجليزية، عندما طورت فكرةً حول عقوبة الإعدام وأفضليتها على السجن مدى الحياة. صحح مدرس الإنجليزية ورقتي بغضب، وأمام كل الصف، أراد أن يجعل منها نموذجاً لا يحتذى. لم يكن يسعى لتعليمنا الإنجليزية فحسب، وهذا أيضاً جعلني أفكر في الأدب. أجبته بأن وجهة نظري ليست وجهة نظر القاضي بل المحكوم"you cannot understand"ألقيتها في وجهه بوقاحة. أخرجني من الفصل وهو يلقي كل أشيائي في الطرقة.

توقفت عن الخروج في السر. كل الليالي أقضيها الآن ملصقاً أذني في جهاز راديو صغير كنت قد سرقته من أحد المتاجر. ووقعت مرةً على نقاش "بإمكاننا أن نكون ملائكةً كي ننفي الموت كما يمكننا أن نكون شياطين كي ننساه، لا يتبقى أقل من أننا كائنات إنسانية ومن هنا يمكننا أن نبتكر شيئاً" قال صوت. حفظت هذه الجملة عن ظهر قلب.

وفي ليلة أخرى حكى رجل أنه أتلف حياته المهنية، لكنه نجح في حياته الجنسية. هذا تشوش عظيم تحت أغطيتي. بالإمكان أن توجد إذن

أكثر من حياة، لا واحدة فقط، هذه الحيوات المنفصلة تتنافس مع بعضها، تلتهم بعضها بعضًا. لماذا؟

كان بعد ذلك بعامين أن وجدت نفسي في السرير مع فتاة للمرة الأولى. لم يمر هذا أبدًا كما هو متوقع: كنت أهتز فوقها، عاجزًا عن الإيلاج فيها، عضوي يصطدم بعظامها عاجزًا عن أن يجد طريقه للفتحة. كان ذلك كالجحيم. قلت لنفسي إننا لا نحب بعضنا بما يكفي. لم يكن هناك تفسير آخر. حبي غير قادر على فعلها. أنا أشعر بالإهانة. ولكن لا شيء يفعل، هي أيضًا عديمة الخبرة مثلي وانتهيت بأن صرفت نظرًا عن الموضوع، وواريت عضوي شاعرًا بالاحتقان وألم ممض أسفل بطني.

كان يلزم لي بعض الوقت لأفهم أنه يجب وضع اليد للمساعدة على الإيلاج. كنت أجهل أن ذلك مسموح به. لم أر أبدًا هذه الحركة، لا في أحد الأفلام، ولا في كتاب، كل القصص التي مررت عليها كانت تحتقر الواقع. إذن فالحب لم يكن يكفي، يلزم أيضًا بعض التقنية. المتعة تمر عبر هذا. لم أكن ملاكًا.

في ذلك اليوم فهمت أن الحياة تبدأ هنا حيث تنتهي الصور. هنا حيث علي أن أرتجل، دون أي تمثلات تسبق تصرفاتي كي تملي عليها السلوك. داخل غرفة، المغامرة أصبحت مغامرتي للمرة الأولى: الأمر يتعلق بالابتكار اعتمادًا على الذات، مهما كانت حالتها.

أن تكون في النهاية حاضرًا بجسدك وروحك، تغامر بكاملك. لم أعتبر المغامرة الجنسية أبدًا كممارسة اجتماعية ولا رسمية تتطلبها الطبيعة، ولكن كواحدة من الإمكانيات النادرة التي يكون علي أن أقوم بها مع شخص في تجربة إنسانية تتجاوزني (في وقت السلم).

مؤخرًا قامت فتاة شابة في الليلة الأولى بإخراج قنينة صغيرة تحتوي على شيء دهنت به فتحة شرجها، لا لأنها تحبذ ذلك الشيء، لكنها افترضت أن كل الرجال يحبون هذا و"يجب فعل كل شيء في الجنس"، قالت لي. هذه الـ "يجب" كانت غرائبية. دون أن تتجاوز أعوامها العشرين تعرف ألف مرة أكثر مما كنت أعرفه في عمرها، وبالمقارنة، بدت لي فترة شبابي شديدة البراءة. وبدا لي مع ذلك أن الأمر يتعلق لا يزال بنفس الجهل بالجنس، الذي أصبح متمسخًا في المهارة بشكل مريع. وعندما راحت في النوم، أخذت تمص إبهامها.

في عمر السابعة عشرة. أذهب مع والدي للعشاء ذات ليلة في ملهى

زينو بالشانزيليزيه، كما هي عادتنا في فترات الرخاء. وفي حين تأخر أبي على السلم، احتضنت أمي بشكل عرضي في فناء البناية وقبلتها على فمها، بدلا من الرفض، وجد لساني لسانها. قبلة طويلة شهوانية بيننا، يدي تمسد ظهرها، ثم مؤخرتها. جزء مني يراقبني أفعل ولا يشارك في الحدث. يسجل أدق التفاصيل. وانفصلنا قبل أن يظهر أبي.

وعندما ظهر وضعت أمي ذراعها بفرح فوق ذراعه. قبلته بسرعة على وجنته وهي تلقي نظرة سريعة على مسكن البوابة ونوافذ البناية. أمامي، كان ردفاها يتموجان.

في الشارع، كنت أنتظر في كل لحظة أن أصعق في مكاني. أنظر للسماء لكي أرى إن كانت ستقع على رأسي، أنظر للسماء فعليا. ولكن لا يحدث شيئا. لا توجد أي بروق، ولا أي علامة، ما من أي تدخل. ولا حتى حمامة مدهوسة تحت عيني. السحب كما كانت دائما. والسيارات تتوقف في الإشارات الحمراء. وتنطلق في الخضراء. الأب والأم يعبران من مكان عبور المشاة. وأنا أتبعهما. لم تتغير حركاتي. كل شيء ظل كما كان. العالم بقي على حاله وأنا سجينه. تدخلي لم يسفر عن شيء. لم تحدث أي زلازل. هو دائما نفس الفراغ الضاغط. نفس الوقت الذي يتكرر. نفس الموت في الحياة. دائما أنا.

بعد يومين أو ثلاثة قالت لي أمي بغضب: "يجب نسيان ما حدث في ذاك اليوم. لقد كانت نوبة جنون. هل تفهم". نعم أفهم. "ولكن لماذا فعلت ذلك في الفناء؟" كانت تريد أن تعرف. في صوتها كنت أشعر أن هذا هو السؤال الوحيد الذي يؤرقها كثغرة فيما جرى. تقبيلها في الفناء كان صادما لها أكثر من فعل التقبيل نفسه.

بعد عشرين عاما، سأذهب لمقابلة أبي في الريف، وسأحكي له ذلك المشهد. كنا نسير على طريق طيني، كما في الصور ة ذات الحواف المحززة. يقول: "هي أمور تحدث".

كنت أظن أني تجاوزت كل شيء، وإذ كنت عائدا إلى منزلي ذات مساء، تعرفت على صوت أبي بين رسائل متعددة على جهاز الرد الآلي الخاص بالتليفون. وككل مرة يكلم فيها الفراغ كان صوته مستعازا. يقول: "ألو... جريجوار... أنا بابا... آسف لإزعاجك، ولكن أمك قفزت من النافذة... أنا مع رجال الطوارئ ... وسننطلق على اثنو إلى المستشفى... أردت أن أخبرك. سأتصل ثانية لأقول لك الأخبار. أقبلك. إلى اللقاء".

أنا واقف بجوار التليفون. توقفت عن التنفس. أغمضت عيني. أردد لنفسي داخليًا: "لا ليس هذا. ليس هذا" كصرخة لا أستطيع أن أطلقها. لدي وعي بالصمت في الشقة. بالصمت الذي يأتي من فناء العمارة عبر النافذة المفتوحة. الجو لطيف في الخارج. لم يقل شيئًا عن حالتها. هل ماتت أم ماذا؟ تحضرني فجأة صورة جسدها المحطم. خمسة طوابق. أفتح عيني ثانيةً. أنظر للحائط أمامي. أضع يدي مسطحتين على الجدار. لا أعرف ماذا أفعل. لا تبدو لي أي حركة كافيةً. هو حتى لم يقل في أي مستشفى. متوقع أن تكون ماتت.أفضل من أن تعيش محطمة الجسد. مختصرة في هيئة جذع. ربما أقل من جذع. أغلق عيني. لقد فعلتها في النهاية. أضرب رأسي في الحائط عدة مرات.

ثم أنتظر في الظلام أن يتصل أبي. لدي الوقت الكافي لتخيل أمي بعد السقوط من خمسة طوابق. خمسة عشر مترًا. ماذا يمكن أن تفعل بها. ذلك ما قدرته تقريبًا.

هي في مستشفى سان أنطوان. هي حيةً.ولا حتى كسر بذراعها. فقط كدمة بالفقرات وضلع مكسور. ستستطيع الخروج خلال ثلاثة أيام، بعد الانتهاء من كل الفحوص. في هذه اللحظة هي نائمة. الأطباء لم يصدقوا. لم يروا ذلك أبدًا "من ذلك الارتفاع لا يتبقى شيء غالبًا" يخبرني نائب الوردية.

لقد اصطدمت بسقف من الزنك لبناية خارجية صغيرة امتص سقطتها. وبالنظر من النافذة بإمكانك أن ترى الأثر الذي تركه جسدها في وضع معقوف، كقالب يمكن ملؤه بالجص. أغلق النافذة وأنا أفكر، أن نقض القوانين يبدو كتخصص في عائلتي.

نسهر عليها أنا وأبي جزءًا من الليل. أمي موضوعة في سرير خلف ستارة زرقاء كبيرة. لا يوجد شيء يمكن أن نفعله، فذهبنا لتناول شيء من الطعام في أول مشرب صادفناه. يحكي لي أبي أنه وصل متأخرًا جدًا هذه المرة كي يلحق بها. إنه لا يستطيع تجاوز ما فعلته. فهو تقريبًا يثير الإعجاب.

في اليوم التالي عدنا لرؤيتها. تفتح أمي عينيها. وجهها شديد الشحوب وناعم جدًا في نفس الوقت. همست: "حتى الموت لا يريدني". أرسم على وجهي ابتسامة. أقول لها إن ذلك من دواعي السعادة.

13 يلعب هنا الكاتب على المقابلة بين لقبه Bouillier وكلمة écrabouillé التي تعني مدهوشا.

14 حي في برلين كان يقع على الحدود بين الشطرين الغربي والشرقي للمدينة وهو الآن تجمع للجاليات العربية والتركية.

15 في الدارجة الفرنسية تشير كلمة chatte إلى فرج المرأة إضافة لمعناها كقطة أنثى.

16 يلعب الكاتب هنا على الجناس بين DS وهو موديل السيارة، وكلمةdéesse وتعني إلهة.

17 Gros caillou تعني الحصاة الكبيرة